تحذير المسلمين

من الغلو في الدين

الشيخ سيد عبد العاطي



اصدار موسوعة اعرف دينك للعلوم الشرعية

{ تَحْذِيرُ الْمُسْلِمِينَ مِنَ الْغُلُوِّ فِي الدِّينِ }

اَلْـحَمْدُ لِلَّهِ الْمُنْقِذِ مِنَ الضَّلَالِ، الْمُرْشِدِ إِلَى الْـحَقِّ، الْـهَادِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطِهِ الْـمُسْتَقِيمِ، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى سَيِّدِ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ.

أَمَّا بَعْدُ:

••فَهَذِهِ رِسَالَةٌ مُخْتَصَرَةٌ عَنْوَنْتُ لَهَا بِهَذَا الْعُنْوَانِ{ تَحْذِيرُ الْمُسْلِمِينَ مِنَ الْغُلُوِّ فِي الدِّينِ } فِيهَا بَيَانٌ لِخُطُورَةِ وَمَفَاسِدِ الْغُلُوِّ وَالتَّنَطُّعِ وَالتَّشَدُّدِ وَالتَّطَرُّفِ،وَإِظْهَارٌ لِوَسَطِيَّةِ الْإِسْلَامِ وَدَعْوَتِهِ لِلْيُسْرِ وَرَفْعِ الْحَرَجِ وَالرِّفْقِ،وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْمَوْضُوعَاتِ الْمُهِمَّةَ تَحْتَاجُ إِلَى تَمْهِيدٍ فَأَقُولُ مُمَهِّدًا:

-إِنَّ الْوَاجِبَ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ وَمُسْلِمَةٍ الْـحَذَرُ كُلَّ الْـحَذَرِ مِنَ الْعَدُوِّ الْـمُبِينِ إِبْلِيسَ عَلَيْهِ لَعْنَةُ اللَّهِ تَعَالَى، فَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ۚ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ } (اَلْبَقَرَة:٢٠٨).

-قَالَ الْعَلَّامَةُ السَّعْدِيُّ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى- فِي تَفْسِيرِهَا:{ هَذَا أَمْرٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لِلْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَدْخُلُوا { فِي السِّلْمِ كَافَّةً } - أَيْ: فِي جَمِيعِ شَرَائِعِ الدِّينِ، وَلَا يَتْرُكُوا مِنْهَا شَيْئًا، وَأَنْ لَا يَكُونُوا مِمَّنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ، إِنْ وَافَقَ الْأَمْرُ الْـمَشْرُوعُ هَوَاهُ فَعَلَهُ، وَإِنْ خَالَفَهُ، تَرَكَهُ، بَلِ الْوَاجِبُ أَنْ يَكُونَ الْـهَوَى، تَبَعًا لِلدِّينِ، وَأَنْ يَفْعَلَ كُلَّ مَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ، مِنْ أَفْعَالِ الْـخَيْرِ، وَمَا يَعْجِزُ عَنْهُ، يَلْتَزِمْهُ وَيَنْوِيهِ، فَيُدْرِكُهُ بِنِيَّتِهِ.

-وَلَمَّا كَانَ الدُّخُولُ فِي السِّلْمِ كَافَّةً، لَا يُمْكِنُ وَلَا يَتَصَوَّرُ إِلَّا بِمُخَالَفَةِ طُرُقِ الشَّيْطَانِ، قَالَ: { وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ } - أَيْ: فِي الْعَمَلِ بِمَعَاصِي اللَّهِ { إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ }، وَالْعَدُوُّ الْـمُبِينُ، لَا يَأْمُرُ إِلَّا بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ، وَمَا بِهِ الضَّرَرُ عَلَيْكُمْ }.

-وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى:{ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ } (فَاطِر:٦).

-قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ الطَّبَرِيُّ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى- فِي تَفْسِيرِهَا:{ الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: { إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا }، يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ: { إِنَّ الشَّيْطَانَ } الَّذِي نَهَيْتُكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ أَنْ تَغْتَرُّوا بِغُرُورِهِ إِيَّاكُمْ بِاللَّهِ { لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا }، يَقُولُ: فَأَنْزِلُوهُ مِنْ أَنْفُسِكُمْ مَنْزِلَةَ الْعَدُوِّ مِنْكُمْ، وَاحْذَرُوهُ بِطَاعَةِ اللَّهِ وَاسْتِغْشَاشِكُمْ إِيَّاهُ حَذَرَكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمُ الَّذِي تَخَافُونَ غَائِلَتَهُ عَلَى أَنْفُسِكُمْ، فَلَا تُطِيعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِهِ، فَإِنَّهُ إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ، يَعْنِي شِيعَتَهُ وَمَنْ أَطَاعَهُ، إِلَى طَاعَتِهِ وَالْقَبُولِ مِنْهُ، وَالْكُفْرِ بِاللَّهِ { لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ }، يَقُولُ: لِيَكُونُوا مِنَ الْـمُخَلَّدِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ الَّتِي تَتَوَقَّدُ عَلَى أَهْلِهَا }.
-وَبِنَحْوِ الَّذِي قُلْنَا فِي ذَلِكَ قَالَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ.

-ذِكْرُ مَنْ قَالَ ذَلِكَ:

-حَدَّثَنَا بِشْرٌ، قَالَ: ثَنَا يَزِيدُ، قَالَ: ثَنَا سَعِيدٌ، عَنْ قَتَادَةَ قَوْلُهُ: { إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا }، فَإِنَّهُ لَحَقٌّ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ عَدَاوَتُهُ، وَعَدَاوَتُهُ أَنْ يُعَادِيَهُ بِطَاعَةِ اللَّهِ { إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ }، وَحِزْبُهُ: أَوْلِيَاؤُهُ { لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ }، أَيْ: لِيَسُوقَهُمْ إِلَى النَّارِ، فَهَذِهِ عَدَاوَتُهُ.

-حَدَّثَنِي يُونُسُ، قَالَ: أَخْبَرَنَا ابْنُ وَهْبٍ، قَالَ: قَالَ ابْنُ زَيْدٍ، فِي قَوْلِهِ: { إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ }، وَقَالَ: هَؤُلَاءِ حِزْبُهُ مِنَ الْإِنْسِ، يَقُولُ: أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ، وَالْـحِزْبُ: وُلَاتُهُ الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَيَتَوَلَّاهُمْ، وَقَرَأَ:{ إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ }.

•وَٱلشَّيْطَانُ لَهُ مَدْخَلَانِ عَلَى ٱلْإِنسَانِ، يَنْفُذُ مِنْ خِلَالِهِمَا عَلَى ٱلْمَرْءِ ٱلْمُسْلِمِ، لِيَصُدَّهُ عَنْ دِينِ ٱللَّهِ، وَلِيُغْوِيَهُ عَنْ طَاعَةِ ٱللَّهِ، وَلِيَصْرِفَهُ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ٱلسَّوِيَّةِ، وَٱلطَّرِيقَةِ ٱلْمَرْضِيَّةِ؛ وَهُمَا: مَدْخَلُ ٱلشُّبُهَاتِ، وَمَدْخَلُ ٱلشَّهَوَاتِ.

-أَمَّا مَدْخَلُ ٱلشَّهَوَاتِ: فَإِنَّ ٱلشَّيْطَانَ إِذَا رَأَى فِي ٱلْمُسْلِمِ مَيْلًا لِلْمَعَاصِي وَحُبًّا لَهَا، زَيَّنَهَا فِي عَيْنِهِ، وَنَمَّقَهَا فِي نَفْسِهِ، وَجَمَّلَهَا عِنْدَهُ، لِيَكُونَ مُتَّبِعًا لِشَهَوَاتِهِ، رَاكِضًا وَرَاءَ مَلَذَّاتِهِ، مُنْصَرِفًا عَنْ دِينِهِ، وَطَاعَةِ رَبِّهِ سُبْحَانَهُ.

-وَأَمَّا ٱلْمَدْخَلُ ٱلثَّانِي: فَهُوَ مَدْخَلُ ٱلشُّبُهَاتِ، وَيَدْخُلُ مِنْهُ ٱلشَّيْطَانُ إِذَا رَأَى فِي ٱلْإِنسَانِ تَمَسُّكًا بِٱلدِّينِ، وَحِرْصًا عَلَى طَاعَةِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ، وَبُعْدًا عَنِ ٱلشَّهَوَاتِ وَٱلْمَعَاصِي وَٱلْمَلَذَّاتِ، فَإِذَا وَجَدَ ٱلْمَرْءَ ٱلْمُسْلِمَ بِهَذِهِ ٱلصِّفَةِ، فَإِنَّهُ يَدْخُلُ عَلَيْهِ مِنْ طَرِيقِ ٱلشُّبْهَةِ، فَيَصِلُ بِهِ إِلَى ٱلْغُلُوِّ فِي ٱلدِّينِ، وَإِلَى ٱلتَّطَرُّفِ وَٱلتَّشَدُّدِ وَٱلْمُغَالَاةِ فِي دِينِ ٱللَّهِ، لِيَخْرُجَ مِنْ دِينِ ٱللَّهِ، وَمِنَ ٱلطَّرِيقِ ٱلسَّوِيَّةِ، وَمِنْ طَاعَةِ ٱللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، حَسْبَمَا أَمَرَ؛ فَيُزَيِّنَ ٱلشُّبُهَاتِ، وَيَأْخُذَ بِٱلْإِنسَانِ إِلَى ٱلْغُلُوِّ فِي ٱلدِّينِ وَٱلتَّشَدُّدِ فِيهِ، إِلَى أَنْ يَخْرُجَ مِنْهُ، وَهُوَ يَظُنُّ أَنَّهُ مُطِيعٌ لِلَّهِ، مُحَافِظٌ عَلَى أَوَامِرِ ٱللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

-وَلَا يَزَالُ ٱلشَّيْطَانُ حَرِيصًا عَلَى صَرْفِ ٱلْإِنسَانِ عَنْ طَرِيقِ ٱللَّهِ ٱلْمُسْتَقِيمِ، وَعَنْ صِرَاطِهِ ٱلْقَوِيمِ، وَلَا يُبَالِي عَدُوُّ ٱللَّهِ بِأَيِّ ٱلْأَمْرَيْنِ ظَفِرَ؛ إِمَّا إِيقَاعِ ٱلْمَرْءِ فِي ٱلشُّبْهَةِ، أَوْ إِيقَاعِهِ فِي ٱلشَّهْوَةِ، هَمُّ ٱلشَّيْطَانِ وَنَصَبُهُ أَنْ يَنْصَرِفَ ٱلْمُسْلِمُ عَنْ طَاعَةِ ٱللَّهِ، وَعَنِ ٱلسَّبِيلِ ٱلصَّحِيحَةِ ٱلَّتِي أَمَرَ ٱللَّهُ بِهَا.

•مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ جَاءَ ٱلتَّحْذِيرُ ٱلشَّدِيدُ مِنَ ٱلْغُلُوِّ فِي ٱلدِّينِ فِي ٱلْقُرْآنِ ٱلْكَرِيمِ وَٱلسُّنَّةِ ٱلْمُطَهَّرَةِ:



•أَوَّلًا: ٱلْقُرْآنُ يُحَذِّرُ مِنَ ٱلْغُلُوِّ فِي ٱلدِّينِ:

(١) قَالَ ٱللَّهُ تَعَالَى:{ يَا أَهْلَ ٱلْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْـحَقَّ ۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ فَآمِنُوا بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِ ۖ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ ۚ ٱنتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ ۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ ۘ لَّهُ مَا فِي ٱلسَّمَاوَاتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا }.(ٱلنِّسَاءِ:١٧١).

-قَالَ ٱلْعَلَّامَةُ ٱلسَّعْدِيُّ -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَى-

فِي تَفْسِيرِهَا:{ يَنْهَى تَعَالَى أَهْلَ ٱلْكِتَابِ عَنِ ٱلْغُلُوِّ فِي ٱلدِّينِ، وَهُوَ مُجَاوَزَةُ ٱلْـحَدِّ وَٱلْقَدْرِ ٱلْمَشْرُوعِ إِلَى مَا لَيْسَ بِمَشْرُوعٍ.

وَذَلِكَ كَقَوْلِ ٱلنَّصَارَى فِي غُلُوِّهِمْ بِعِيسَى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وَرَفْعِهِ عَنْ مَقَامِ ٱلنُّبُوَّةِ وَٱلرِّسَالَةِ إِلَى مَقَامِ ٱلرُّبُوبِيَّةِ، ٱلَّذِي لَا يَلِيقُ بِغَيْرِ ٱللَّهِ، فَكَمَا أَنَّ ٱلتَّقْصِيرَ وَٱلتَّفْرِيطَ مِنَ ٱلْمَنْهِيَّاتِ، فَٱلْغُلُوَّ كَذَلِكَ، وَلِهَذَا قَالَ: { وَلَا تَقُولُوا عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْـحَقَّ }، وَهَذَا ٱلْكَلَامُ يَتَضَمَّنُ ثَلَاثَةَ أَشْيَاءَ: أَمْرَيْنِ مَنْهِيٍّ عَنْهُمَا، وَهُمَا قَوْلُ ٱلْـكَذِبِ عَلَى ٱللَّهِ، وَٱلْقَوْلُ بِغَيْرِ عِلْمٍ فِي أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ وَشَرْعِهِ وَرُسُلِهِ، وَٱلثَّالِثُ: مَأْمُورٌ بِهِ، وَهُوَ قَوْلُ ٱلْـحَقِّ فِي هَذِهِ ٱلْأُمُورِ.

-وَلَمَّا كَانَتْ هَذِهِ قَاعِدَةً عَامَّةً كُلِّيَّةً، وَكَانَ السِّيَاقُ فِي شَأْنِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ نَصَّ عَلَى قَوْلِ الْحَقِّ فِيهِ، الْمُخَالِفِ لِطَرِيقَةِ الْيَهُودِيَّةِ وَالنَّصْرَانِيَّةِ فَقَالَ: {إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ} – أَيْ: غَايَةُ الْمَسِيحِ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَمُنْتَهَى مَا يَصِلُ إِلَيْهِ مِنْ مَرَاتِبِ الْكَمَالِ، أَعْلَى حَالَةٍ تَكُونُ لِلْمَخْلُوقِينَ، وَهِيَ دَرَجَةُ الرِّسَالَةِ الَّتِي هِيَ أَعْلَى الدَّرَجَاتِ وَأَجَلُّ الْمَثُوبَاتِ.

وَأَنَّهُ {كَلِمَتُهُ} الَّتِي {أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ} – أَيْ: كَلِمَةٌ تَكَلَّمَ اللَّهُ بِهَا، فَكَانَ بِهَا عِيسَى، وَلَمْ يَكُنْ تِلْكَ الْكَلِمَةَ، وَإِنَّمَا كَانَ بِهَا، وَهَذَا مِنْ بَابِ إِضَافَةِ التَّشْرِيفِ وَالتَّكْرِيمِ.

وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ: {وَرُوحٌ مِّنْهُ} أَيْ: مِنَ الْأَرْوَاحِ الَّتِي خَلَقَهَا وَكَمَّلَهَا بِالصِّفَاتِ الْفَاضِلَةِ وَالْأَخْلَاقِ الْكَامِلَةِ، أَرْسَلَ اللَّهُ رُوحَهُ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَنَفَخَ فِي فَرْجِ مَرْيَمَ عَلَيْهَا السَّلَامُ، فَحَمَلَتْ بِإِذْنِ اللَّهِ بِعِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

-فَلَمَّا بَيَّنَ حَقِيقَةَ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، أَمَرَ أَهْلَ الْكِتَابِ بِالْإِيمَانِ بِهِ وَبِرُسُلِهِ، وَنَهَاهُمْ أَنْ يَجْعَلُوا اللَّهَ ثَالِثَ ثَلَاثَةٍ، أَحَدُهُمْ عِيسَى، وَالثَّانِي مَرْيَمُ، فَهَذِهِ مَقَالَةُ النَّصَارَى، قَبَّحَهُمُ اللَّهُ.

فَأَمَرَهُمْ أَنْ يَنْتَهُوا، وَأَخْبَرَ أَنَّ ذَلِكَ خَيْرٌ لَهُمْ، لِأَنَّهُ الَّذِي يَتَعَيَّنُ أَنَّهُ سَبِيلُ النَّجَاةِ، وَمَا سِوَاهُ فَهُوَ طَرِيقُ الْهَلَاكِ، ثُمَّ نَزَّهَ نَفْسَهُ عَنِ الشَّرِيكِ وَالْوَلَدِ، فَقَالَ: {إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ} – أَيْ: هُوَ الْمُنْفَرِدُ بِالْأُلُوهِيَّةِ، الَّذِي لَا تَنْبَغِي الْعِبَادَةُ إِلَّا لَهُ.

-{سُبْحَانَهُ} أَيْ: تَنَزَّهَ وَتَقَدَّسَ {أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ}، لِأَنَّ {لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ}، فَالْكُلُّ مَمْلُوكُونَ لَهُ، مُفْتَقِرُونَ إِلَيْهِ، فَمُحَالٌ أَنْ يَكُونَ لَهُ شَرِيكٌ مِنْهُمْ أَوْ وَلَدٌ.

-وَلَمَّا أَخْبَرَ أَنَّهُ الْمَالِكُ لِلْعَالَمِ الْعُلْوِيِّ وَالسُّفْلِيِّ، أَخْبَرَ أَنَّهُ قَائِمٌ بِمَصَالِحِهِمُ الدُّنْيَوِيَّةِ وَالْأُخْرَوِيَّةِ، وَحَافِظُهَا، وَمُجَازِيهِمْ عَلَيْهَا، تَعَالَى.

(٢) وَقَالَ اللهُ تَعَالَى: { قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ }. (الْمَائِدَةُ:٧٧).

-قَالَ العَلَّامَةُ السَّعْدِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-
فِي تَفْسِيرِهَا: { يَقُولُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: { قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ } - أَي: لَا تَتَجَاوَزُوا وَتَتَعَدَّوْا الْحَقَّ إِلَى الْبَاطِلِ، وَذَلِكَ كَقَوْلِهِمْ فِي الْمَسِيحِ، مَا تَقَدَّمَ حِكَايَتُهُ عَنْهُمْ.

وَكَغُلُوِّهِمْ فِي بَعْضِ الْمَشَايِخِ، اتِّبَاعًا لِـ { أَهْوَاءِ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ } - أَي: تَقَدَّمَ ضَلَالُهُمْ.

-{ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا } مِنَ النَّاسِ بِدَعْوَتِهِمْ إِيَّاهُمْ إِلَى الدِّينِ، الَّذِي هُمْ عَلَيْهِ.

-{ وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ } أَي: قَصْدِ الطَّرِيقِ، فَجَمَعُوا بَيْنَ الضَّلَالِ وَالإِضْلَالِ، وَهَؤُلَاءِ هُمْ أَئِمَّةُ الضَّلَالِ الَّذِينَ حَذَّرَ اللهُ عَنْهُمْ وَعَنْ اتِّبَاعِ أَهْوَائِهِمُ الْمُرْدِيَةِ، وَآرَائِهِمُ الْمُضِلَّةِ }.

(٣) وَقَالَ اللهُ تَعَالَى مُبَيِّنًا غُلُوَّ إِبْلِيسَ وَكِبْرَهُ وَتَجَاوُزَهُ الحَدَّ:{وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ} (البَقَرَة:٣٤).

-قَالَ العَلَّامَةُ السَّعْدِيُّ - رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى - فِي تَفْسِيرِهَا:{ ثُمَّ أَمَرَهُمْ تَعَالَى بِالسُّجُودِ لِآدَمَ؛ إِكْرَامًا لَهُ وَتَعْظِيمًا، وَعُبُودِيَّةً لِلَّهِ تَعَالَى، فَامْتَثَلُوا أَمْرَ اللهِ، وَبَادَرُوا كُلُّهُمْ بِالسُّجُودِ، { إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى } امْتَنَعَ عَنِ السُّجُودِ، وَاسْتَكْبَرَ عَنْ أَمْرِ اللهِ وَعَلَى آدَمَ، قَالَ: { أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا }، وَهٰذَا الإِبَاءُ مِنْهُ وَالِاسْتِكْبَارُ، نَتِيجَةُ الكُفْرِ الَّذِي هُوَ مُنْطَوٍ عَلَيْهِ، فَتَبَيَّنَتْ حِينَئِذٍ عَدَاوَتُهُ لِلَّهِ وَلِآدَمَ وَكُفْرُهُ وَاسْتِكْبَارُهُ.

-وَفِي هٰذِهِ الآيَاتِ مِنَ العِبَرِ وَالآيَاتِ: إِثْبَاتُ الكَلَامِ لِلَّهِ تَعَالَى، وَأَنَّهُ لَمْ يَزَلْ مُتَكَلِّمًا، يَقُولُ مَا شَاءَ، وَيَتَكَلَّمُ بِمَا شَاءَ، وَأَنَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ، وَفِيهِ أَنَّ العَبْدَ إِذَا خَفِيَتْ عَلَيْهِ حِكْمَةُ اللهِ فِي بَعْضِ المَخْلُوقَاتِ وَالمَأْمُورَاتِ، فَالوَاجِبُ عَلَيْهِ: التَّسْلِيمُ، وَاتِّهَامُ عَقْلِهِ، وَالإِقْرَارُ لِلَّهِ بِالحِكْمَةِ، وَفِيهِ اعْتِنَاءُ اللهِ بِشَأْنِ المَلَائِكَةِ، وَإِحْسَانُهُ بِهِمْ، بِتَعْلِيمِهِمْ مَا جَهِلُوا، وَتَنْبِيهُهُمْ عَلَى مَا لَمْ يَعْلَمُوهُ }.

(٤) وَقَالَ تَعَالَى مُوَضِحًا غُلُوَّ فِرْعَوْنَ وَكِبْرَهُ وَغُرُورَهُ الَّذِي أَهْلَكَهُ: { يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّيَ أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ }. (ٱلقَصَصُ:٣٨).

-قَالَ العَلَّامَةُ السَّعْدِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- فِي تَفْسِيرِهَا: { وَقَالَ فِرْعَوْنُ } مُتَجَرِّئًا عَلَىٰ رَبِّهِ، وَمُمَوِّهًا عَلَىٰ قَوْمِهِ السُّفَهَاءِ، أَخْفَاءَ العُقُولِ: { يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِي } أَي : أَنَا وَحْدِي، إِلَٰهُكُمْ وَمَعْبُودُكُمْ، وَلَوْ كَانَ ثَمَّ إِلَـٰهٌ غَيْرِي، لَعَلِمْتُهُ، فَانْظُرْ إِلَىٰ هٰذَا الوَرَعِ التَّامِّ مِنْ فِرْعَوْنَ!، حَيْثُ لَمْ يَقُلْ: (مَا لَكُمْ مِنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِي)، بَلْ تَوَرَّعَ وَقَالَ: { مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِي }، وَهٰذَا، لِأَنَّهُ عِنْدَهُمْ، العَالِمُ الفَاضِلُ، الَّذِي مَهْمَا قَالَ فَهُوَ الحَقُّ، وَمَهْمَا أَمَرَ أَطَاعُوهُ.

-فَلَمَّا قَالَ هٰذِهِ المَقَالَةَ، الَّتِي قَدْ تَحْتَمِلُ أَنْ ثَمَّ إِلَـٰهًا غَيْرَهُ، أَرَادَ أَنْ يُحَقِّقَ النَّفْيَ، الَّذِي جَعَلَ فِيهِ ذٰلِكَ الاِحْتِمَالَ، فَقَالَ لِـ "هَامَانَ": { فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ } لِيَجْعَلَ لَهُ لِبَنًا مِنْ فَخَّارٍ، { فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا }أَي: بِنَاءً، { لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ }، وَلَٰكِنْ سَنُحَقِّقُ هٰذَا الظَّنَّ، وَنُرِيكُمْ كِذْبَ مُوسَىٰ.
-فَانْظُرْ هٰذِهِ الجَرْأَةَ العَظِيمَةَ عَلَى اللهِ، الَّتِي مَا بَلَغَهَا آدَمِيٌّ، كَذَّبَ مُوسَىٰ، وَادَّعَى أَنَّهُ إِلَـٰهٌ، وَنَفَىٰ أَنْ يَكُونَ لَهُ عِلْمٌ بِالإِلَـٰهِ الحَقِّ، وَفَعَلَ الأَسْبَابَ، لِيَتَوَصَّلَ إِلَىٰ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ، وَكُلُّ هٰذَا تَرْوِيجٌ، وَلٰكِنِ العَجَبُ مِنْ هٰؤُلَاءِ المَلَإِ، الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ كُبَرَاءُ المَمْلَكَةِ، المُدَبِّرُونَ لِشُؤُونِهَا، كَيْفَ لَعِبَ هٰذَا الرَّجُلُ بِعُقُولِهِمْ، وَاسْتَخَفَّ أَحْلَامَهُمْ، وَهٰذَا لِفِسْقِهِمُ الَّذِي صَارَ صِفَةً رَاسِخَةً فِيهِمْ. فَسَدَ دِينُهُمْ، ثُمَّ تَبِعَ ذٰلِكَ فَسَادُ عُقُولِهِمْ، فَنَسْأَلُكَ اللهمَّ الثَّبَاتَ عَلَى الإِيمَانِ، وَأَنْ لَا تُزِيغَ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا، وَتَهَبَ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الوَهَّابُ }.

-وَفِي مَوْضِعٍ آخَرَ قَالَ تَعَالَى مُوَضِحًا غُلُوَّ فِرْعَوْنَ:{ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٥١) أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ

هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ (٥٢) فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ (٥٣) فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ (٥٤)}. (ٱلزُّخْرُف:٥١-٥٤).

-{ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ } مُسْتَعْلِيًا بِبَاطِلِهِ، قَدْ غَرَّهُ مُلْكُهُ، وَأَطْغَاهُ مَالُهُ وَجُنُودُهُ: { يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ } أَي: أَلَسْتُ الْمَالِكَ لِذٰلِكَ، الْمُتَصَرِّفَ فِيهِ، { وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِي } أَي: الْأَنْهَارُ الْمُنْسَحِبَةُ مِنَ النِّيلِ، فِي وَسَطِ الْقُصُورِ وَالْبَسَاتِينِ.

-{ أَفَلَا تُبْصِرُونَ } هٰذَا الْمُلْكَ الطَّوِيلَ الْعَرِيضَ، وَهٰذَا مِنْ جَهْلِهِ الْبَلِيغِ، حَيْثُ افْتَخَرَ بِأَمْرٍ خَارِجٍ عَنْ ذَاتِهِ، وَلَمْ يَفْتَخِرْ بِأَوْصَافٍ حَمِيدَةٍ، وَلَا أَفْعَالٍ سَدِيدَةٍ.

-{ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ } يَعْنِي -قَبَّحَهُ ٱللَّهُ- بِالْمَهِينِ، مُوسَى بْنَ عِمْرَانَ، كَلِيمَ الرَّحْمَنِ، الْوَجِيهَ عِنْدَ ٱللَّهِ، - أَي: أَنَا الْعَزِيزُ، وَهُوَ الذَّلِيلُ الْمُهَانُ الْمُحْتَقَرُ، فَأَيُّنَا خَيْرٌ؟ { وَ } مَعَ هٰذَا فَـ { لَا يَكَادُ يُبِينُ } عَمَّا فِي ضَمِيرِهِ بِالْكَلَامِ، لِأَنَّهُ لَيْسَ بِفَصِيحِ اللِّسَانِ، وَهٰذَا لَيْسَ مِنَ الْعُيُوبِ فِي شَيْءٍ، إِذَا كَانَ يُبِينُ مَا فِي قَلْبِهِ، وَلَوْ كَانَ ثَقِيلًا عَلَيْهِ الْكَلَامُ.
-ثُمَّ قَالَ فِرْعَوْنُ: { فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ } أَي: فَهَلَّا كَانَ مُوسَى بِهٰذِهِ الْحَالَةِ، أَنْ يَكُونَ مُزَيَّنًا مُجَمَّلًا بِالْحَلِيِّ وَالْأَسَاوِرِ؟{ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ } يُعَاوِنُونَهُ عَلَىٰ دَعْوَتِهِ، وَيُؤَيِّدُونَهُ عَلَىٰ قَوْلِهِ.

-{ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ } أَي: ٱسْتَخَفَّ عُقُولَهُمْ بِمَا أَبْدَىٰ لَهُمْ مِنْ هٰذِهِ الشُّبَهِ، ٱلَّتِي لَا تُسْمِنُ وَلَا تُغْنِي مِنْ جُوعٍ، وَلَا حَقِيقَةَ تَحْتَهَا، وَلَيْسَتْ دَلِيلًا عَلَىٰ حَقٍّ وَلَا عَلَىٰ بَاطِلٍ، وَلَا تَرُوجُ إِلَّا عَلَىٰ ضُعَفَاءِ الْعُقُولِ. فَأَيُّ دَلِيلٍ يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ فِرْعَوْنَ مُحِقٌّ، لِكَوْنِ مُلْكِ مِصْرَ لَهُ، وَأَنَّهَارِهِ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِ؟ وَأَيُّ دَلِيلٍ يَدُلُّ عَلَىٰ بُطْلَانِ مَا جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ لِقِلَّةِ أَتْبَاعِهِ، وَثِقَلِ لِسَانِهِ، وَعَدَمِ تَحْلِيَةِ ٱللَّهِ لَهُ؟ وَلَٰكِنَّهُ لَقِيَ مَلَأً لَا مَعْقُولَ عِنْدَهُمْ، فَمَهْمَا قَالَ ٱتَّبَعُوهُ، مِنْ حَقٍّ وَبَاطِلٍ.

-{ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ } فَبِسَبَبِ فِسْقِهِمْ، قَيَّضَ لَهُمْ فِرْعَوْنَ، يُزَيِّنُ لَهُمُ ٱلشِّرْكَ وَٱلشَّرَّ.

(٥) وَقَالَ تَعَالَى مُوَضِّحًا غُلُوَّ ٱلْيَهُودِ وَٱلنَّصَارَىٰ: { وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ يُضَـٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ (٣٠) ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَـٰنَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ }.(ٱلتَّوْبَة:٣٠-٣١).

(٦) وَقَالَ تَعَالَى مُوَضِّحًا غُلُوَّ ٱلنَّصَارَىٰ فِي ٱلْعِبَادَةِ:{ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَـٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ }.(ٱلْحَدِيد:٢٧).

-{ ثُمَّ قَفَّيْنَا } أَيْ: أَتْبَعْنَا { عَلَىٰ آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ } خَصَّ اللَّهُ عِيسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ لِأَنَّ السِّيَاقَ مَعَ النَّصَارَى، الَّذِينَ يَزْعُمُونَ ٱتِّبَاعَ عِيسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، { وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ } ٱلَّذِي هُوَ مِنْ كُتُبِ اللَّهِ الْفَاضِلَةِ،{ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً } كَمَا قَالَ تَعَالَى: { لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا، وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ، ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ } الْآيَاتِ. وَلِهَٰذَا كَانَ النَّصَارَىٰ أَلْيَنَ مِنْ غَيْرِهِمْ قُلُوبًا، حِينَ كَانُوا عَلَىٰ شَرِيعَةِ عِيسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، { وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا } وَٱلرَّهْبَانِيَّةُ: ٱلْعِبَادَةُ، فَهُمْ ٱبْتَدَعُوا مِنْ عِندِ أَنْفُسِهِمْ عِبَادَةً، وَوَظَّفُوهَا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ، وَٱلْتَزَمُوا لَوَازِمَ مَا كَتَبَهَا ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَا فَرَضَهَا، بَلْ هُمْ ٱلَّذِينَ ٱلْتَزَمُوا بِهَا مِنْ تِلْقَاءِ أَنْفُسِهِمْ، قَصْدُهُمْ بِذَٰلِكَ رِضَا ٱللَّهِ تَعَالَىٰ، وَمَعَ ذَٰلِكَ { فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا } أَيْ: مَا قَامُوا بِهَا وَلَا أَدَّوْا حُقُوقَهَا، فَقَصَّرُوا مِنْ وَجْهَيْنِ: مِنْ جِهَةِ ٱبْتِدَاعِهِمْ، وَمِنْ جِهَةِ عَدَمِ قِيَامِهِمْ بِمَا فَرَضُوهُ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ.

-فَهٰذِهِ ٱلْحَالُ هِيَ ٱلْغَالِبُ مِنْ أَحْوَالِهِمْ. وَمِنْهُمْ مَّنْ هُوَ مُسْتَقِيمٌ عَلَىٰ أَمْرِ ٱللَّهِ، وَلِهٰذَا قَالَ: { فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ }أَيْ: ٱلَّذِينَ آمَنُوا بِمُحَمَّدٍ-صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، مَعَ إِيمَانِهِمْ بِعِيسَىٰ، كُلٌّ أَعْطَاهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ حَسَبِ إِيمَانِهِ { وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ }.



•ثَانِيًا: السُّنَّةُ الْمُطَهَّرَةُ وَالتَّحْذِيرُ مِنَ الْغُلُوِّ:

-وَرَدَتْ نُصُوصٌ كَثِيرَةٌ فِي السُّنَّةِ الْمُطَهَّرَةِ تُحَذِّرُ مِنَ الْغُلُوِّ فِي الدِّينِ أَذْكُرُ مِنْهَا:

(١) مَا أَخْرَجَهُ الْإِمَامُ النَّسَائِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- فِي سُنَنِهِ بِرَقْمِ (٣٠٥٧) مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبَّاسٍ -رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُمَا- قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- غَدَاةَ الْعَقَبَةِ وَهُوَ عَلَى رَاحِلَتِهِ: { هَاتِ الْقُطْ لِي. فَلَقَطْتُ لَهُ حَصَيَاتٍ هُنَّ حَصَى الْخَذْفِ، فَلَمَّا وَضَعْتُهُنَّ فِي يَدِهِ، قَالَ: بِأَمْثَالِ هَؤُلَاءِ، وَإِيَّاكُمْ وَالْغُلُوَّ فِي الدِّينِ، فَإِنَّمَا أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمُ الْغُلُوُّ فِي الدِّينِ }.

•شَرْحُ الْحَدِيثِ:

-الْحَجُّ أَحَدُ أَرْكَانِ الْإِسْلَامِ الْخَمْسَةِ، وَقَدْ بَيَّنَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- كَيْفِيَّةَ أَدَاءِ الْحَجِّ بِقَوْلِهِ وَفِعْلِهِ، وَأَمَرَ بِأَخْذِ الْمَنَاسِكِ عَنْهُ؛ فَعَلَى الْمُسْلِمِ أَنْ يَقْتَدِيَ بِالنَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-.

-وَفِي هَذَا الْحَدِيثِ يَقُولُ عَبْدُ اللهِ بْنُ عَبَّاسٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا-:{ قَالَ لِي رَسُولُ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ، { غَدَاةَ الْعَقَبَةِ }، أَيِ: صَبَاحَ رَمْيِ جَمْرَةِ الْعَقَبَةِ، وَهُوَ يَوْمُ النَّحْرِ، أَوَّلَ أَيَّامِ الْأَضْحَى، يَوْمَ الْعَاشِرِ مِنْ ذِي الْحِجَّةِ، { وَهُوَ } أَيْ: رَسُولُ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، { عَلَى رَاحِلَتِهِ } أَيْ: رَاكِبٌ عَلَى نَاقَتِهِ، {هَاتِ} أَيْ: أَعْطِ، { الْقُطْ لِي } صِيغَةُ أَمْرٍ مِنْ لَقَطَ، أَيْ: أَخَذَ، { فَلَقَطْتُ لَهُ حَصَيَاتٍ } أَيْ: أَخَذْتُ لِلنَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- حَصَيَاتٍ، وَهِيَ الْحِجَارَةُ الصَّغِيرَةُ، وَعَدَدُهُنَّ سَبْعُ حَصَيَاتٍ، {

هُنَّ حَصَى الْخَذْفِ }،وَهِيَ أَكْبَرُ مِنَ الْحِمَّصِ، وَدُونَ الْبُنْدُقِ، وَقِيلَ: نَحْوُ حَبِّ الْبَاقِلَّاءِ، وَهِيَ الْفُولَةُ،قَالَ:{ فَلَمَّا وَضَعْتُهُنَّ فِي يَدِهِ }، أَيِ: وَضَعْتُ السَّبْعَ الْحَصَيَاتِ فِي يَدِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-،{ قَالَ } أَيِ: رَسُولُ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: { بِأَمْثَالِ هَؤُلَاءِ }، أَيِ: ارْمُوا بِأَمْثَالِ هَؤُلَاءِ الْحَصَيَاتِ فِي الْحَجْمِ،{ وَإِيَّاكُمْ } أَيِ:أُحَذِّرُكُمْ،{ وَالْغُلُوَّ فِي الدِّينِ } أَيِ: مُجَاوَزَةَ الْحَدِّ فِي أُمُورِ الدِّينِ، وَالتَّشَدُّدَ فِيهِ بِالْإِفْرَاطِ، وَلَكِنْ عَلَيْكُمْ بِالْوَسَطِيَّةِ فِي كُلِّ شَيْءٍ؛ { فَإِنَّمَا أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ } مِنَ الْأُمَمِ السَّابِقَةِ،{ الْغُلُوُّ فِي الدِّينِ }، أَيِ: مُجَاوَزَةُ الْحَدِّ، وَالتَّشَدُّدُ فِي الدِّينِ بِالْإِفْرَاطِ؛ فَهُوَ سَبَبُ الْهَلَاكِ وَالْبَوَارِ.

-وَفِي الْحَدِيثِ: بَيَانُ النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- لِبَعْضِ مَنَاسِكِ الْحَجِّ.
-وَفِيهِ: التَّحْذِيرُ مِنَ الْغُلُوِّ، وَبَيَانُ أَنَّهُ مِنْ أَسْبَابِ هَلَاكِ الْأُمَمِ السَّابِقَةِ.

(٢) وَمَا أَخْرَجَهُ الْإِمَامُ الْبُخَارِيُّ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى- فِي صَحِيحِهِ بِرَقْمِ (٣٤٤٥) مِنْ حَدِيثِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ -رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ- قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: { لَا تُطْرُونِي كَمَا أَطْرَتِ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ؛ فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُهُ، فَقُولُوا: عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ }.

•شَرْحُ الْحَدِيثِ:

-فِي هَذَا الْحَدِيثِ يُرْشِدُ النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أُمَّتَهُ أَلَّا يُبَالِغُوا فِي مَدْحِهِ، وَأَلَّا يُنْزِلُوهُ عَنْ مَنْزِلَتِهِ، فَيَقُولُ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: { لَا تُطْرُونِي كَمَا أَطْرَتِ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ }، وَالْإِطْرَاءُ هُوَ: الْإِفْرَاطُ فِي الْمَدْحِ وَمُجَاوَزَةُ الْحَدِّ فِيهِ، وَقِيلَ: هُوَ الْمَدْحُ بِالْبَاطِلِ وَالْكَذِبُ فِيهِ، وَالْمَعْنَى: لَا تَمْدَحُونِي بِالْبَاطِلِ وَبِمَا لَيْسَ لِي مِنَ الصِّفَاتِ، كَمَا وَصَفَتِ النَّصَارَى عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ بِمَا لَمْ يَكُنْ فِيهِ، فَزَعَمُوا أَنَّهُ ابْنُ اللَّهِ، فَكَفَرُوا بِذَلِكَ وَضَلُّوا، وَقَدْ بَيَّنَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ فِي كِتَابِهِ مَا كَانَ عَلَيْهِ النَّصَارَى مِنَ الْغُلُوِّ وَحَذَّرَهُمْ مِنْ ذَلِكَ، وَمِنْهُ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى:

{ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا }. (النِّسَاء: ١٧١).

-ثُمَّ أَمَرَهُمْ النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بِأَنْ يَقُولُوا عَنْهُ: إِنَّهُ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، وَجَمَعَ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بَيْنَ وَصْفِهِ بِالْعُبُودِيَّةِ لِلَّهِ وَوَصْفِهِ بِالرِّسَالَةِ؛ دَفْعًا لِلْإِفْرَاطِ وَالتَّفْرِيطِ؛ فَدَفَعَ الْإِفْرَاطَ وَالْغُلُوَّ فِيهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بِكَوْنِهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- عَبْدَ اللَّهِ تَعَالَى، وَدَفَعَ التَّقْصِيرَ وَالتَّفْرِيطَ فِي حَقِّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بِتَرْكِ مُتَابَعَتِهِ، وَعَدَمِ الْأَخْذِ بِسُنَّتِهِ، وَالسَّيْرِ عَلَى نَهْجِهِ الَّذِي أَرْسَلَهُ اللَّهُ بِهِ؛ بِكَوْنِهِ رَسُولَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.
-فَلَا غُلُوَّ فِي حَقِّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وَلَا قُصُورَ، وَوَصْفُهُ وَمَدْحُهُ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بِمَا فَضَّلَهُ اللَّهُ بِهِ وَشَرَّفَهُ؛ حَقٌّ وَاجِبٌ عَلَى كُلِّ مَنْ بَعَثَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ مِنْ خَلْقِهِ.

-وَفِي الْحَدِيثِ: تَوْجِيهُ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أُمَّتَهُ لِلْوَسَطِيَّةِ وَالِاعْتِدَالِ فِي حَقِّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-.
-وَفِيهِ: ذِكْرُ أَهْلِ الضَّلَالِ بِضَلَالَاتِهِمْ؛ تَحْذِيرًا مِنَ الْوُقُوعِ فِيمَا وَقَعُوا فِيهِ.

(٣) وَمَا أَخْرَجَهُ الْإِمَامُ الْبُخَارِيُّ -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَى- فِي صَحِيحِهِ بِرَقْمِ (٦٧٨٦) مِنْ حَدِيثِ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَةَ -رَضِيَ ٱللَّهُ تَعَالَى عَنْهَا-قَالَتْ:{ مَا خُيِّرَ ٱلنَّبِيُّ-صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بَيْنَ أَمْرَيْنِ إِلَّا ٱخْتَارَ أَيْسَرَهُمَا مَا لَمْ يَأْثَمْ، فَإِذَا كَانَ ٱلْإِثْمُ كَانَ أَبْعَدَهُمَا مِنْهُ، وَٱللَّهِ مَا ٱنْتَقَمَ لِنَفْسِهِ فِي شَيْءٍ يُؤْتَى إِلَيْهِ قَطُّ، حَتَّى تُنْتَهَكَ حُرُمَاتُ ٱللَّهِ، فَيَنْتَقِمُ لِلَّهِ }.

•شَرْحُ ٱلْحَدِيثِ:
-كَانَ ٱلنَّبِيُّ -صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- رَؤُوفًا رَحِيمًا، وَكَانَ يُحِبُّ ٱلتَّيْسِيرَ عَلَى ٱلْمُسْلِمِينَ فِي كُلِّ ٱلْأُمُورِ ٱلْمُحْتَمَلَةِ لِذٰلِكَ، وَمَعَ ذٰلِكَ فَإِنَّهُ كَانَ وَقَّافًا عِنْدَ حُدُودِ ٱللَّهِ وَمَحَارِمِهِ،

وَيَغْضَبُ لِلَّهِ أَشَدَّ ٱلْغَضَبِ حَتَّى يُزَالَ ٱلْحَرَامُ، فَكَانَ -صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يُوَازِنُ بَيْنَ مَا فِيهِ مَصْلَحَةٌ لِلْعِبَادِ وَبَيْنَ مَا يَكُونُ حَقًّا لِلَّهِ تَعَالَى.

-وَفِي هٰذَا ٱلْحَدِيثِ تُخْبِرُ عَائِشَةُ -رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا- أَنَّ ٱلنَّبِيَّ -صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- كَانَ دَائِمًا مَا يَمِيلُ عِنْدَ ٱلِاخْتِيَارِ إِلَى ٱلسَّهْلِ ٱلْيَسِيرِ، إِلَّا أَنْ يَكُونَ فِي ذٰلِكَ وُقُوعٌ فِي ٱلْحُرُمَاتِ أَوِ ٱلْمَعْصِيَةِ، فَإِذَا رَأَى أَنَّ فِي ٱلتَّيْسِيرِ دُخُولًا فِي ٱلْإِثْمِ فَإِنَّهُ يَأْخُذُ بِٱلْعَزَائِمِ وَٱلشِّدَّةِ.

-وَكَانَ مِنْ حُسْنِ خُلُقِهِ -صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أَنَّهُ كَانَ يُسَامِحُ فِي حَقِّ نَفْسِهِ؛ فَلَمْ يَكُنْ -صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يَنْتَقِمُ وَيَبْطِشُ بِأَحَدٍ إِلَّا إِذَا ٱنْتُهِكَتْ حُرُمَاتُ ٱللَّهِ بِٱلتَّعَدِّي عَلَيْهَا وَٱرْتِكَابِ ٱلْمَعَاصِي، فَحِينَئِذٍ يَكُونُ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ ٱنْتِقَامًا لِلْأَخْذِ بِحَقِّ ٱللَّهِ.

-وَفِي هٰذَا إِرْشَادُ ٱلْمُسْلِمِينَ إِلَى أَنْ يَكُونَ سَبِيلُ حَيَاتِهِمْ عَلَى ٱلتَّيْسِيرِ وَٱلْمُسَامَحَةِ وَٱلْبُعْدِ عَنِ ٱلتَّشَدُّدِ وَٱلْغُلُوِّ ٱلْمُبَالَغِ فِيهِ، مَعَ ٱلْوُقُوفِ عِنْدَ حُرُمَاتِ ٱللَّهِ وَحُدُودِهِ؛ فَلَا تُرْتَكَبُ ٱلْمَعَاصِي وَٱلذُّنُوبُ، وَلَا يُنْتَهَكُ حَقُّ ٱللَّهِ فِي ٱلْمُجْتَمَعِ ٱلْمُسْلِمِ، فَإِذَا حَدَثَ ذٰلِكَ وَجَبَ عَلَى ٱلْمُسْلِمِ ٱلْغَضَبُ لِلَّهِ مُقْتَدِيًا بِٱلنَّبِيِّ -صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، مَعَ مُرَاعَاةِ وَضْعِ ٱلْأُمُورِ فِي نِصَابِهَا، وَأَنْ يَكُونَ ٱلْغَضَبُ فِي مَحَلِّهِ وَلَا يَتَجَاوَزَهُ إِلَى أَكْثَرَ مِنْهُ؛ حَتَّى لَا يُفْسِدَ مِنْ حَيْثُ أَرَادَ ٱلْإِصْلَاحَ.

(٤) وَمَا أَخْرَجَهُ ٱلْإِمَامُ أَحْمَدُ -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَى- فِي ٱلْمُسْنَدِ بِرَقْمِ (١٥٦٧٠) مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ ٱلرَّحْمَنِ بْنِ شُبْلٍ -رَضِيَ ٱللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ- قَالَ: قَالَ رَسُولُ ٱللَّهِ -صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: { ٱقْرَؤُوا ٱلْقُرْآنَ، وَلَا تَغْلُوا فِيهِ، وَلَا تَجْفُوا عَنْهُ، وَلَا تَأْكُلُوا بِهِ، وَلَا تَسْتَكْثِرُوا بِهِ }.

•شَرْحُ ٱلْحَدِيثِ:

-حَثَّ ٱللَّهُ تَعَالَى عِبَادَهُ عَلَى ٱلْإِكْثَارِ مِنْ قِرَاءَةِ ٱلْقُرْآنِ، وَبَيَّنَ لَهُمْ مَا فِيهِ مِنَ ٱلْأَجْرِ ٱلْعَظِيمِ، فَقَالَ تَعَالَى: { إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا ٱلصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ (٢٩) لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ

شَكُورٌ }.(فاطر: ٢٩–٣٠)؛ وَلِهَٰذَا يَنْبَغِي ٱلاِهْتِمَامُ بِقِرَاءَةِ ٱلْقُرْآنِ وَتَدَبُّرِهِ، وَمِنَ ٱلْآدَابِ ٱلْمُتَعَلِّقَةِ بِقِرَاءَةِ ٱلْقُرْآنِ ٱلَّتِي أَرْشَدَ لَهَا ٱلنَّبِيُّ -صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- مَا جَاءَ فِي هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ؛ حَيْثُ يَقُولُ -صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: { ٱقْرَؤُوا ٱلْقُرْآنَ }،أَيْ: عَلَيْكُمْ بِكَثْرَةِ قِرَاءَةِ ٱلْقُرْآنِ،{ وَلَا تَغْلُوا فِيهِ }. مِنَ ٱلْغُلُوِّ، وَهُوَ ٱلتَّجَاوُزُ، أَيْ: لَا تُجَاوِزُوا حَدَّهُ مِنْ حَيْثُ لَفْظُهُ أَوْ مَعْنَاهُ، بِأَنْ تَتَأَوَّلُوهُ بِبَاطِلٍ، أَوِ ٱلْمُرَادُ: لَا تَبْذُلُوا جُهْدَكُمْ فِي قِرَاءَتِهِ وَتَتْرُكُوا غَيْرَهُ مِنَ ٱلْعِبَادَاتِ.{ وَلَا تَجْفُوا عَنْهُ }. مِنْ جَفَا عَنْهُ: إِذَا بَعُدَ، أَيْ: لَا تَبْعُدُوا عَنْ تِلَاوَتِهِ وَتُقِلُّوهَا، بَلْ تَوَسَّطُوا فِي قِرَاءَتِهِ؛ فَٱلْجَفَاءُ عَنْهُ: ٱلتَّقْصِيرُ. وَٱلْغُلُوُّ: ٱلتَّعَمُّقُ فِيهِ، وَكِلَاهُمَا مَنْهِيٌّ عَنْهُ، وَقَدْ أَمَرَ ٱللَّهُ بِٱلتَّوَسُّطِ فِي ٱلْأُمُورِ، { وَلَا تَأْكُلُوا بِهِ }، أَيْ: لَا تَجْعَلُوا ٱلْقُرْآنَ مَكْسَبًا تَأْكُلُونَ بِهِ أَمْوَالَ ٱلنَّاسِ، وَلَا تَسْتَكْثِرُوا بِهِ، أَيْ: لَا تَجْعَلُوهُ سَبَبًا لِلِاسْتِكْثَارِ مِنَ ٱلْمَالِ وَلِمَعَايِشِكُمْ وَٱلْإِكْثَارِ مِنَ ٱلدُّنْيَا.

-وَفِي ٱلْحَدِيثِ: ٱلْحَثُّ عَلَى قِرَاءَةِ ٱلْقُرْآنِ.

-وَفِيهِ: ٱلنَّهْيُ عَنِ ٱلْغُلُوِّ فِي ٱلْقُرْآنِ.

-وَفِيهِ: ٱلنَّهْيُ عَنِ ٱلْجَفَاءِ فِي ٱلْقُرْآنِ.

-وَفِيهِ: ٱلنَّهْيُ عَنِ ٱلتَّأَكُّلِ بِٱلْقُرْآنِ.

-وَفِيهِ: ٱلنَّهْيُ عَنْ جَعْلِ ٱلْقُرْآنِ سَبَبًا لِلِاسْتِكْثَارِ مِنَ ٱلدُّنْيَا.

(٥) وَمَا أَخْرَجَهُ ٱلْإِمَامُ ٱلْبُخَارِيُّ -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَى- فِي صَحِيحِهِ بِرَقْم (٦٨٥١) مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ -رَضِيَ ٱللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ- قَالَ: نَهَى رَسُولُ ٱللَّهِ -صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- عَنِ ٱلْوِصَالِ، فَقَالَ لَهُ رِجَالٌ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ: فَإِنَّكَ -يَا رَسُولَ ٱللَّهِ- تُوَاصِلُ، فَقَالَ رَسُولُ ٱللَّهِ -صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: { أَيُّكُمْ مِثْلِي؟! إِنِّي أَبِيتُ يُطْعِمُنِي رَبِّي وَيَسْقِينِ. فَلَمَّا أَبَوْا أَنْ يَنْتَهُوا عَنِ ٱلْوِصَالِ وَاصَلَ بِهِمْ يَوْمًا، ثُمَّ يَوْمًا، ثُمَّ رَأَوُا ٱلْهِلَالَ، فَقَالَ: لَوْ تَأَخَّرَ لَزِدْتُكُمْ. كَٱلْمُنَكِّلِ بِهِمْ حِينَ أَبَوْا }.

- شَرْحُ ٱلْحَدِيثِ:

-ٱلْعِبَادَاتُ أُمُورٌ تَوْقِيفِيَّةٌ تُؤَدَّى كَمَا أُمِرَ بِهَا ٱلشَّرْعُ، وَقَدْ أُمِرْنَا أَنْ نَتَّقِيَ ٱللَّهَ قَدْرَ ٱلِاسْتِطَاعَةِ دُونَ مَشَقَّةٍ عَلَى ٱلْأَنْفُسِ، وَأَلَّا نَتَشَدَّدَ فِي ٱلدِّينِ؛ لِأَنَّ ٱلنَّاسَ يَخْتَلِفُونَ فِي قُدُرَاتِهِمْ وَتَحَمُّلِهِمْ، وَحَتَّى لَا تَمَلَّ ٱلنُّفُوسُ مِنَ ٱلْعِبَادَاتِ وَمِنْ أَوَامِرِ ٱلدِّينِ.

-وَفِي هٰذَا ٱلْحَدِيثِ يُخْبِرُنَا أَبُو هُرَيْرَةَ -رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ- أَنَّ ٱلنَّبِيَّ -صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- نَهَى أُمَّتَهُ -رَحْمَةً وَرِفْقًا بِهِمْ- عَنْ مُوَاصَلَةِ ٱلصَّوْمِ بِتَرْكِ ٱلطَّعَامِ لَيْلًا وَنَهَارًا، قَصْدًا وَعَمْدًا؛ حَيْثُ إِنَّ ٱلْوِصَالَ لَمْ يُشْرَعْ لِلْأُمَّةِ، وَإِنَّمَا هُوَ خُصُوصِيَّةٌ مِنْ خُصُوصِيَّاتِهِ -صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، فَهُوَ يَبِيتُ يُطْعِمُهُ رَبُّهُ وَيَسْقِيهِ أَثْنَاءَ ٱللَّيْلِ، إِمَّا عَلَى ٱلْحَقِيقَةِ يُطْعِمُهُ مِنْ طَعَامِ ٱلْجَنَّةِ؛ فَٱلَّذِي يُفْطِرُ شَرْعًا إِنَّمَا هُوَ ٱلطَّعَامُ ٱلْمُعْتَادُ، وَأَمَّا ٱلْخَارِقُ لِلْعَادَةِ فَلَا، أَوِ ٱلْمَعْنَى: يَجْعَلُ ٱللَّهُ تَعَالَى فِيهِ قُوَّةَ ٱلطَّاعِمِ ٱلشَّارِبِ، وَيُفِيضُ عَلَيْهِ مَا يَسُدُّ مَسَدَّ ٱلطَّعَامِ وَٱلشَّرَابِ، وَيُقَوِّي عَلَى أَنْوَاعِ ٱلطَّاعَةِ مِنْ غَيْرِ ضَعْفٍ فِي ٱلْقُوَّةِ.

-وَهٰذَا مِنْ تَمَامِ شَفَقَةِ ٱلنَّبِيِّ -صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، وَرَحْمَتِهِ بِأُمَّتِهِ، وَخَوْفِهِ عَلَيْهَا مِنَ ٱلْمَلَلِ مِنَ ٱلْعِبَادَةِ وَٱلتَّعَرُّضِ لِلتَّقْصِيرِ فِي بَعْضِ وَظَائِفِ ٱلدِّينِ.

-وَيُخْبِرُ أَبُو هُرَيْرَةَ -رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ- أَنَّ بَعْضَ ٱلصَّحَابَةِ لَمَّا لَمْ يَمْتَنِعُوا عَنِ ٱلْوِصَالِ -لِظَنِّهِمْ أَنَّ نَهْيَهُ-عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ-نَهْيَ تَنْزِيهٍ لَا تَحْرِيمٍ- وَاصَلَ بِهِمُ ٱلنَّبِيُّ -صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- ٱلصَّوْمَ يَوْمَيْنِ، ثُمَّ رَأَوْا هِلَالَ شَوَّالٍ، فَقَالَ -صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: { لَوْ تَأَخَّرَ لَزِدْتُكُمْ }، أَيْ: لَيْتَهُ تَأَخَّرَ هِلَالُ شَوَّالٍ حَتَّى أَزِيدَ فِي عَدَدِ أَيَّامِ ٱلْوِصَالِ، { كَٱلْمُنَكِّلِ بِهِمْ حِينَ أَبَوْا }، أَيْ: قَالَ ذٰلِكَ زَجْرًا وَتَأْدِيبًا لَهُمْ؛ حَيْثُ كَلَّفُوا أَنْفُسَهُمْ مَا لَا يَطِيقُونَ.

-وَفِي الْحَدِيثِ النَّهْيُ عَنِ الْوِصَالِ وَالرِّفْق بِالنَّفْسِ.

(٦) وَمَا أَخْرَجَهُ ٱلْإِمَامُ ٱلْبُخَارِيُّ -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَى- فِي صَحِيحِهِ بِرَقْم (٣٩) مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ -رَضِيَ ٱللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ- قَالَ: قَالَ رَسُولُ ٱللَّهِ -صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: { إِنَّ ٱلدِّينَ يُسْرٌ، وَلَنْ يُشَادَّ ٱلدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ، فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا، وَأَبْشِرُوا، وَٱسْتَعِينُوا بِٱلْغَدْوَةِ وَٱلرَّوْحَةِ وَشَيْءٍ مِنَ ٱلدُّلْجَةِ }.

• شَرْحُ ٱلْحَدِيثِ:

-دِينُ ٱلْإِسْلَامِ هُوَ دِينُ ٱلْيُسْرِ، وَقَدْ حَثَّ ٱلنَّبِيُّ -صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- عَلَى مُلَازَمَةِ ٱلرِّفْقِ فِي ٱلْأَعْمَالِ، وَٱلِاقْتِصَارِ عَلَى مَا يُطِيقُهُ ٱلْعَامِلُ، وَيُمْكِنُهُ ٱلْمُدَاوَمَةُ عَلَيْهِ، وَأَنَّ مَنْ شَادَّ ٱلدِّينَ وَتَعَمَّقَ ٱنْقَطَعَ، وَغَلَبَهُ ٱلدِّينُ وَقَهَرَهُ. وَقَدْ أَسَّسَ -صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فِي أَوَّلِ ٱلْحَدِيثِ هٰذَا ٱلْأَصْلَ ٱلْكَبِيرَ، فَقَالَ: { إِنَّ ٱلدِّينَ يُسْرٌ }، فَهُوَ مُيَسَّرٌ مُسَهَّلٌ فِي عَقَائِدِهِ وَأَخْلَاقِهِ، وَفِي أَفْعَالِهِ وَتُرُوكِهِ. ثُمَّ وَصَّى بِٱلتَّسْدِيدِ وَٱلْمُقَارَبَةِ، وَتَقْوِيَةِ ٱلنُّفُوسِ بِٱلْبِشَارَةِ بِٱلْخَيْرِ، وَعَدَمِ ٱلْيَأْسِ، وَٱلتَّسْدِيدُ: هُوَ ٱلْعَمَلُ بِٱلْقَصْدِ، وَٱلتَّوَسُّطُ فِي ٱلْعِبَادَةِ، فَلَا يُقَصِّرُ فِيمَا أُمِرَ بِهِ، وَلَا يَتَحَمَّلُ مِنْهَا مَا لَا يُطِيقُهُ، مِنْ غَيْرِ إِفْرَاطٍ وَلَا تَفْرِيطٍ. وَقَوْلُهُ: { وَقَارِبُوا }، أَيْ: إِنْ لَمْ تَسْتَطِيعُوا ٱلْأَخْذَ بِٱلْأَكْمَلِ، فَٱعْمَلُوا بِمَا يَقْرُبُ مِنْهُ. وَقَوْلُهُ: { وَأَبْشِرُوا }، أَيْ: بِٱلثَّوَابِ عَلَى ٱلْعَمَلِ وَإِنْ قَلَّ.

-ثُمَّ أَرْشَدَ ٱلنَّبِيُّ-صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-إِلَى مَا يُسَاعِدُ عَلَى ٱلسَّدَادِ وَٱلْمُقَارَبَةِ، فَقَالَ: { وَٱسْتَعِينُوا بِٱلْغَدْوَةِ وَٱلرَّوْحَةِ، وَشَيْءٍ مِنَ ٱلدُّلْجَةِ }؛ فَهٰذِهِ ٱلْأَوْقَاتُ ٱلثَّلَاثَةُ أَوْقَاتُ ٱلْعَمَلِ وَٱلسَّيْرِ إِلَى ٱللَّهِ؛ فَٱلْغَدْوَةُ: أَوَّلُ ٱلنَّهَارِ، وَٱلرَّوْحَةُ: آخِرُهُ، وَٱلدُّلْجَةُ: سَيْرُ آخِرِ ٱللَّيْلِ، وَسَيْرُ آخِرِ ٱللَّيْلِ مَحْمُودٌ فِي سَيْرِ ٱلدُّنْيَا بِٱلْأَبْدَانِ، وَفِي سَيْرِ ٱلْقُلُوبِ إِلَى ٱللَّهِ بِٱلْأَعْمَالِ. وَقَالَ: وَشَيْءٍ مِنَ ٱلدُّلْجَةِ، وَلَمْ يَقُلْ: وَٱلدُّلْجَةِ؛ تَخْفِيفًا؛ لِمَشَقَّةِ عَمَلِ ٱللَّيْلِ.

-وَصَدَرَ هٰذَا ٱلْكَلَامُ مِنْهُ -صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- كَأَنَّهُ يُخَاطِبُ مُسَافِرًا يَقْطَعُ طَرِيقَهُ إِلَى مَقْصِدِهِ، فَنَبَّهَهُ عَلَى أَوْقَاتِ نَشَاطِهِ ٱلَّتِي يَزْكُو فِيهَا عَمَلُهُ، فَشَبَّهَ ٱلْإِنسَانَ فِي ٱلدُّنْيَا بِٱلْمُسَافِرِ، وَكَذٰلِكَ هُوَ عَلَى ٱلْحَقِيقَةِ؛ لِأَنَّ ٱلدُّنْيَا دَارُ ٱنْتِقَالٍ وَطَرِيقٌ إِلَى ٱلْآخِرَةِ، فَنَبَّهَ -صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أُمَّتَهُ أَنْ يَغْتَنِمُوا أَوْقَاتَ فُرْصَتِهِمْ وَفَرَاغِهِمْ.

-وَفِي ٱلْحَدِيثِ: تَنْشِيطُ أَهْلِ ٱلْأَعْمَالِ، وَتَبْشِيرُهُمْ بِٱلْخَيْرِ وَٱلثَّوَابِ ٱلْمُرَتَّبِ عَلَى ٱلْأَعْمَالِ.



• ثَالِثًا: تَعْرِيفُ الْغُلُوِّ:

(أ) الْغُلُوُّ لُغَةً:

-قَالَ الْجَوْهَرِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: { غَلَا فِي الْأَمْرِ، يَغْلُو غُلُوًّا، أَيْ: جَاوَزَ فِيهِ الْحَدَّ }. (يُنْظَرْ: الصِّحَاحُ: ٦/٢٤٤٨).

-وَقَالَ ابْنُ مَنْظُورٍ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: { وَأَصْلُ الْغَلَاءِ: الِارْتِفَاعُ، وَمُجَاوَزَةُ الْقَدْرِ فِي كُلِّ شَيْءٍ }. (يُنْظَرْ: لِسَانُ الْعَرَبِ:١٠/١١٢).

-وَكَذَا قَالَ ابْنُ فَارِسٍ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: { الْغَيْنُ وَاللَّامُ وَالْحَرْفُ الْمُعْتَلُّ أَصْلٌ صَحِيحٌ فِي الْأَمْرِ، يَدُلُّ عَلَى ارْتِفَاعٍ وَمُجَاوَزَةِ قَدْرٍ، يُقَالُ: غَلَا السِّعْرُ يَغْلُو غَلَاءً، وَذَلِكَ ارْتِفَاعُهُ. وَغَلَا الرَّجُلُ فِي الْأَمْرِ غُلُوًّا، إِذَا جَاوَزَ حَدَّهُ. وَغَلَا بِسَهْمِهِ غَلْوًا، إِذَا رَمَى بِهِ سَهْمًا أَقْصَى غَايَتِهِ }. (يُنْظَرْ: مُعْجَمُ مَقَايِيسِ اللُّغَةِ:٧٧٣).

(ب) الْغُلُوُّ شَرْعًا:

-قَالَ ابْنُ الْأَثِيرِ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: { الْغُلُوُّ فِي الدِّينِ: أَيْ التَّشَدُّدُ فِيهِ، وَمُجَاوَزَةُ الْحَدِّ، وَقِيلَ مَعْنَاهُ: الْبَحْثُ عَنْ بَوَاطِنِ الْأَشْيَاءِ، وَالْكَشْفُ عَنْ عِلَلِهَا، وَغَوَامِضِ مُتَعَبَّدَاتِهَا }. (يُنْظَرْ:النِّهَايَةُ فِي غَرِيبِ الْحَدِيثِ:٣/٣٨٢).

-وَقَالَ الْحَافِظُ ابْنُ حَجَرٍ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: { الْغُلُوُّ: هُوَ الْمُبَالَغَةُ فِي الشَّيْءِ، وَالتَّشْدِيدُ فِيهِ بِتَجَاوُزِ الْحَدِّ، وَفِيهِ مَعْنَى التَّعَمُّقِ }. (يُنْظَرْ: فَتْحُ الْبَارِي:١٣/٢٧٨).

-وَقَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: { الْغُلُوُّ: مُجَاوَزَةُ الْحَدِّ، بِأَنْ يُزَادَ فِي الشَّيْءِ، فِي حَمْدِهِ، أَوْ ذَمِّهِ عَلَى مَا يَسْتَحِقُّ }.
(يُنْظَرْ:اقْتِضَاءُ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ:١/٢٨٩).

-وَمِنْ شَوَاهِدِ ذَلِكَ:

-قَوْلُهُ تَعَالَى: { يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ }. (النِّسَاءِ:١٧١)، وَقَوْلُ النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: { يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِيَّاكُمْ وَالْغُلُوَّ فِي الدِّينِ، فَإِنَّهُ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمُ الْغُلُوُّ فِي الدِّينِ }. (يُنْظَرْ: الْمُسْنَدُ، (٣٢٤٨)، وَالْمُسْتَدْرَكُ، (٤٦٦/١)، وَقَالَ: صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ، وَوَافَقَهُ الذَّهَبِيُّ).، وَحَدِيثٌ: { لَا تُغَالُوا فِي الْكَفَنِ، فَإِنَّهُ يُسْلَبُهُ سَلْبًا سَرِيعًا }. (يُنْظَرْ: سُنَنُ أَبِي دَاوُدَ، رَقْم:٣١٥٤).، وَمِنْهُ قَوْلُ عُمَرَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-: { أَلَا لَا تُغَالُوا بِصُدُقِ النِّسَاءِ }.(يُنْظَرْ:سُنَنُ أَبِي دَاوُدَ،رَقْم:٢١٠٦).

• وَبِهَذَا يَتَبَيَّنُ اتِّفَاقُ الْمَعْنَيَيْنِ، اللُّغَوِيِّ وَالِاصْطِلَاحِيِّ عَلَى تَعْرِيفِ الْغُلُوِّ، وَأَنَّهُ بِمَعْنَى تَجَاوُزِ الْحَدِّ، وَالزِّيَادَةِ الْمَذْمُومَةِ فِي كُلِّ شَيْءٍ، وَلَوْ بِالتَّعَمُّقِ وَالتَّكَلُّفِ، وَهُوَ بِهَذَا الِاعْتِبَارِ ضَرْبٌ مِنَ الْبِدْعَةِ، لِخُرُوجِهِ عَنْ رَسْمِ الشَّرْعِ مِنْ جِهَةِ الزِّيَادَةِ وَالْمُبَالَغَةِ، وَلَا يُشْفِعُ لَهُ كَوْنُهُ صَادِرًا عَنْ اجْتِهَادٍ وَحُسْنِ نِيَّةٍ، فَإِنَّ اقْتِصَادًا فِي اتِّبَاعٍ، خَيْرٌ مِنَ اجْتِهَادٍ فِي ابْتِدَاعٍ.

• وَيُقَارِبُ مَفْهُومَ (الْغُلُوِّ) وَيُشَارِكُهُ مِنْ بَعْضِ الْوُجُوهِ، مُفْرَدَاتٌ ذَاتُ مَدْلُولَاتٍ شَرْعِيَّةٍ، أَوْ مَدْلُولَاتٍ اصْطِلَاحِيَّةٍ، مِنْ جِنْسِ: التَّنَطُّعِ وَالتَّشَدُّدِ وَالْإِفْرَاطِ وَالطُّغْيَانِ وَالْعُتُوِّ وَالتَّطَرُّفِ، يَجْمَعُهَا مَعْنَى الْمُبَالَغَةِ وَتَجَاوُزِ الْحَدِّ الْأَوْسَطِ.



• رَابِعًا: نَشْأَةُ الْغُلُوِّ وَامْتِدَادُهُ:

-مِنَ الْمُسَلَّمَاتِ أَنَّ اللهَ فَطَرَ النَّاسَ عَلَى عِبَادَتِهِ، وَغَرَسَ فِيهِمْ تَوْحِيدَهُ، وَكَانَ أَوَّلَ ذَنْبٍ نَاهَضَ التَّوْحِيدَ وَقِوَامَهُ، وَزَعْزَعَ الْعَقِيدَةَ حَتَّى كَسَرَهَا هُوَ الْغُلُوُّ، قَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ عَبَّاسٍ- رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُمَا- عِنْدَ قَوْلِ اللهِ تَعَالَى:{ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ }.(الْبَقَرَةُ:٢١٣): { كَانَ بَيْنَ نُوحٍ وَآدَمَ عَشَرَةُ قُرُونٍ، كُلُّهُمْ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْحَقِّ. فَاخْتَلَفُوا، فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ }.(يُنْظَرْ: الْمُسْتَدْرَكُ عَلَى الصَّحِيحَيْنِ

لِلْحَاكِمِ (٥٩٦/٢)،رَقْم:(٤٠٠٩)، وَقَالَ: هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ الْبُخَارِيِّ وَلَمْ يُخْرِجَاهُ، وَوَافَقَهُ الذَّهَبِيُّ).

-قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ- رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- مُرَجِّحًا هَذَا الْقَوْلَ إِنَّهُ:{ أَصَحُّ سَنَدًا وَمَعْنًى، لِأَنَّ النَّاسَ كَانُوا عَلَى مِلَّةِ آدَمَ، عَلَيْهِ السَّلَامُ، حَتَّى عَبَدُوا الْأَصْنَامَ، فَبَعَثَ اللهُ إِلَيْهِمْ نُوحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَكَانَ أَوَّلَ رَسُولٍ بَعَثَهُ اللهُ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ }.(يُنْظَرْ: تَفْسِيرُ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ لِابْنِ كَثِيرٍ :٥٦٩/١).

-فَإِذَا عَرَفْنَا أَنَّ اللَّهَ فَطَرَ النَّاسَ عَلَى التَّوْحِيدِ الْخَالِصِ، وَالدِّينِ السَّوِيِّ، فَإِنَّ اللَّهَ لَمْ يُرْسِلْ رَسُولًا بَعْدَ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَّا حِينَ مَالَتْ هَذِهِ الْفِطَرُ، بِمَا طَرَأَ عَلَيْهَا مِنَ الْغُلُوِّ وَالِانْحِرَافِ، فَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا- أَنَّهُ قَالَ عِنْدَ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى:{ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا }.(نُوحٌ: ٢٣). أَنَّ هَذِهِ الْأَسْمَاءَ أَسْمَاءُ رِجَالٍ صَالِحِينَ مِنْ قَوْمِ نُوحٍ، فَلَمَّا هَلَكُوا، أَوْحَى الشَّيْطَانُ إِلَى قَوْمِهِمْ أَنْ انْصِبُوا إِلَى مَجَالِسِهِمُ الَّتِي كَانُوا يَجْلِسُونَ فِيهَا أَنْصَابًا، وَسَمُّوهَا بِأَسْمَائِهِمْ، فَفَعَلُوا فَلَمْ تُعْبَدْ، حَتَّى إِذَا هَلَكَ أُولَئِكَ وَنُسِيَ الْعِلْمُ، عُبِدَتْ }. (يُنْظَرْ: الْبُخَارِيُّ، كِتَابُ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ، بَابُ: {وَدًّا وَلَا سُوَاعًا،وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ}(١٦٠/٦)، رَقْم:٤٩٢٠).

-وَهَذَا الْأَثَرُ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الِانْحِرَافَ عَنِ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ كَانَ نَتِيجَةَ الْغُلُوِّ، وَلَمْ يَأْتِ هَذَا الِانْحِرَافُ عَلَيْهِمْ دَفْعَةً وَاحِدَةً، وَإِنَّمَا تَدَرَّجُوا فِيهِ، فَإِذَا مَاتَ أَحَدُ الصَّالِحِينَ مَثَّلُوا صُورَتَهُ، فَلَمَّا مَاتَ هَؤُلَاءِ وَنُسِيَ الْعِلْمُ، وَجَاءَ مِنْ بَعْدِهِمْ أَقْوَامٌ جُهَّالٌ عَبَدُوا هَذِهِ التَّمَاثِيلَ مِنْ دُونِ اللَّهِ تَعَالَى، فَلَمْ يَزَالُوا كَذَلِكَ حَتَّى بَعَثَ اللَّهُ نَبِيَّهُ نُوحًا إِلَيْهِمْ، فَكَانَ مِنْهُمْ مَا هُوَ مَذْكُورٌ فِي كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى.

-وَهَكَذَا كَانَ الْغُلُوُّ فِي الدِّينِ هُوَ الدَّاءَ الْأَوَّلَ، وَالسَّرَطَانَ الْفَتَّاكَ، وَالْمَرَضَ الْقَاتِلَ، الَّذِي أَفْسَدَ الْعَقَائِدَ، وَأَهْلَكَ تِلْكَ الْأُمَمَ، وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِأَنَّهُ تَعَدٍّ لِمَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ، وَتَجَاوُزٌ لِلْمَشْرُوعِ الَّذِي شَرَعَهُ اللَّهُ.

-وَهَذَا الْغُلُوُّ الَّذِي ظَهَرَ فِي قَوْمِ نُوحٍ سَرَى فِي كُلِّ الْأُمَمِ مِنْ بَعْدِهِمْ، وَتَنَاقَلَهُ الْأَجْيَالُ عَلَى مَرِّ الْعُصُورِ وَالدُّهُورِ، حَتَّى أَصْبَحَ مِنْ أَعْظَمِ الْمَدَاخِلِ الْإِبْلِيسِيَّةِ عَلَى بَنِي آدَمَ، فَلَا تَكَادُ تَجِدُ أُمَّةً مِنَ الْأُمَمِ إِلَّا وَقَدْ غَلَتْ فِي عُظَمَائِهَا وَصَالِحِيهَا، إِمَّا مَدْحًا وَإِمَّا ذَمًّا، وَإِمَّا قَوْلًا وَإِمَّا فِعْلًا.

-فَوُجِدَ الْغُلُوُّ عِنْدَ أَهْلِ الْكِتَابِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: { يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ }.(النِّسَاءُ: ١٧١).

-قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: { يَنْهَى تَعَالَى أَهْلَ الْكِتَابِ عَنِ الْغُلُوِّ وَالْإِطْرَاءِ، وَهَذَا كَثِيرٌ فِي النَّصَارَى، فَإِنَّهُمْ تَجَاوَزُوا حَدَّ التَّصْدِيقِ بِعِيسَى، حَتَّى رَفَعُوهُ فَوْقَ الْمَنْزِلَةِ الَّتِي أَعْطَاهُ اللَّهُ إِيَّاهَا، فَنَقَلُوهُ مِنْ حَيِّزِ النُّبُوَّةِ إِلَى أَنْ اتَّخَذُوهُ إِلَهًا مِنْ دُونِ اللَّهِ يَعْبُدُونَهُ كَمَا يَعْبُدُونَهُ، بَلْ قَدْ غَلَوْا فِي أَتْبَاعِهِ وَأَشْيَاعِهِ، مِمَّنْ زَعَمَ أَنَّهُ عَلَى دِينِهِ، فَادَّعَوْا فِيهِمُ الْعِصْمَةَ وَاتَّبَعُوهُمْ فِي كُلِّ مَا قَالُوهُ، سَوَاءٌ كَانَ حَقًّا أَوْ بَاطِلًا، رَشَادًا أَوْ ضَلَالًا، صَحِيحًا أَوْ خَطَأً، صِدْقًا أَوْ كَذِبًا، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: { اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ }.(التَّوْبَةُ:٣١) }. (يُنْظَرْ: تَفْسِيرُ ابْنِ كَثِيرٍ:٤٧٧/٢).،
وَقَالَ تَعَالَى: { قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ }.(المائدة :٧٧).

-أَي:لَا تُفَرِّطُوا فِي الْقَوْلِ فِيمَا تَدِينُونَ بِهِ مِنْ أَمْرِ الْمَسِيحِ، فَتَجَاوَزُوا فِيهِ الْحَقَّ إِلَى الْبَاطِلِ، فَتَقُولُوا فِيهِ هُوَ اللَّهُ، أَوْ هُوَ ابْنُهُ، وَلَكِنْ قُولُوا: هُوَ (عَبْدُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ)، وَلَا تَتَّبِعُوا فِي الْمَسِيحِ أَهْوَاءَ الْيَهُودِ الَّذِينَ قَدْ ضَلُّوا قَبْلَكُمْ عَنْ سَبِيلِ الْهُدَى فِي الْقَوْلِ فِيهِ، فَتَقُولُونَ فِيهِ كَمَا قَالُوا: هُوَ لِغَيْرِ رَشْدَةٍ، وَتَبْهَتُوا أُمَّهُ كَمَا بَهَتُوهَا بِالْفَرِيَّةِ وَهِيَ صَدِّيقَةٌ، وَهَؤُلَاءِ الْيَهُودُ قَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ، فَحَادُوا بِهِمْ عَنْ طَرِيقِ الْحَقِّ، وَحَمَّلُوهُمْ عَلَى الْكُفْرِ بِاللَّهِ وَالتَّكْذِيبِ بِالْمَسِيحِ، وَضَلَّ هَؤُلَاءِ الْيَهُودُ عَنْ قَصْدِ الطَّرِيقِ، وَرَكِبُوا غَيْرَ مَحَجَّةِ الْحَقِّ، وَإِنَّمَا يَعْنِي تَعَالَى ذِكْرُهُ بِذَلِكَ كُفْرَهُمْ بِاللَّهِ، وَتَكْذِيبَهُمْ رُسُلَهُ: عِيسَى وَمُحَمَّدًا–عَلَيْهِمَا الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ–، وَذَهَابَهُمْ عَنِ الْإِيمَانِ وَبُعْدَهُمْ مِنْهُ، وَذَلِكَ كَانَ ضَلَالَهُمْ الَّذِي وَصَفَهُمُ اللَّهُ بِهِ }.(ينظر: تَفْسِيرُ الطَّبْرِيّ : ٤٨٧/١٠، بِتَصَرُّفٍ يَسِيرٍ).

-وَبَلَغَ بِأَهْلِ الْكِتَابِ الْهَوَى وَالْحَسَدَ، إِلَى أَنَّ بَعْضَهُمْ ضَلَّلَ بَعْضًا، وَكَفَّرَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: { وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ }.(البقرة: ١١٣).

-وَشَابَهَ أَهْلَ الْكِتَابِ مِنْ قَبْلِهِم مِّنَ الأُمَمِ فِي الْغُلُوِّ، وَضَلُّوا كَمَا ضَلَّ الْوَثَنِيُّونَ، وَالْبُوذِيُّونَ، وَالْيُونَانُ، وَالرُّومَانُ، فَوَصَفُوا اللَّهَ بِالنَّقَائِصِ وَالْعُيُوبِ وَالْوَلَدِ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: { وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ }.(التوبة: ٣٠).

-فَهَذَا قَوْلٌ تَلُوكَهُ أَلْسِنَتُهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ بِدُونِ تَعَقُّلٍ، وَلاَ مَسْتَنَدَ لَهُمْ فِيمَا زَعَمُوهُ سِوَى افْتِرَائِهِمْ وَاخْتِلَاقِهِمْ، فَهُوَ مِنَ الأَلْفَاظِ السَّاقِطَةِ الَّتِي لا وَزْنَ لَهَا وَلا قِيمَةَ، فَقَدْ قَامَتْ الأَدِلَّةُ السَّمْعِيَّةُ وَالعَقْلِيَّةُ عَلَى اسْتِحَالَةِ أَنْ يَكُونَ لِلَّهِ وَلَدٌ أَوْ وَالِدٌ أَوْ صَاحِبَةٌ أَوْ شَرِيكٌ.(ينظر: التَّفْسِيرُ الْوَسِيطُ لِطَنطاوي : ٢٥٨/٦).

-وَيَزْعُمُونَ التَّمَيُّزَ عَنِ النَّاسِ بِالدَّعَاوَى الْبَاطِلَةِ مِنْ كَوْنِهِمْ أَبْنَاءَ اللهِ وَأَحِبَّاؤُهُ، قَالَ تَعَالَى: { وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ }.(المائدة: ١٨).

-وَأَعْظَمُ مَظَاهِرِ غُلُوِّهِمْ مَا كَانَ فِي جِنَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ وَصْفِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِالنَّقَائِصِ، وَإِضَافَةِ الْعُيُوبِ إِلَيْهِ فَوَصَفُوا اللَّهَ تَعَالَى بِالْبُخْلِ: { وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ }.(المائدة: ٦٤).

-وَزَعَمُوا أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَفَقِيرٌ وَنَسَبُوا لِأَنْفُسِهِمُ الْغِنَى، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: { لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ }.(آل عمران: ١٨١).

-فَلَمْ يَرْتَكِبْ شَعْبٌ فِي الدُّنْيَا جَرَائِمَ شَنِيعَةً مِثْلَ الْيَهُودِ، وَلَمْ يَقْتَصِرْ إِجْرَامُهُمْ عَلَى الْبَشَرِيَّةِ، وَإِنَّمَا تَجَاوَزَ ذَلِكَ إِلَى اللهِ وَالرُّسُلِ.



• خامِسًا: نُشْأَةُ الغُلُوِّ عندَ المسلمين:

-حَذَّرَ النَّبِيُّ –صلَّى اللهُ عليه وسلَّم–مِنْ كُلِّ صُوَرِ الغُلُوِّ، وأَخْبَرَ أَنَّ الغُلُوَّ مِنْ أَسْبابِ هَلاكِ الأُمَمِ، كَما ذَكَرْنَا في النُّصوصِ السّابِقَةِ ومِنها قَولُهُ –صلَّى اللهُ عليه وسلَّم–:: { يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِيَّاكُم وَالغُلُوَّ فِي الدِّينِ، فَإِنَّهُ أَهْلَكَ مَن كانَ مِن قَبْلِكُمُ الغُلُوُّ فِي الدِّينِ }.(

أَخرَجَهُ ابنُ ماجَهَ برقمِ (٣٠٢٩)، وصَحَّحَهُ الألبانيُّ في صحيحِ الجامعِ الصَّغيرِ وزِيادَتِهِ رقمُ: ٢٦٨٠).

-قَالَ شَيخُ الإسلامِ ابنُ التَّيميَّةِ -رحِمهُ اللهُ تعالى- عندَ هذَا الحَديثِ بأنَّهُ:{ عَامٌّ في جَميعِ أَنْواعِ الغُلُوِّ، في الاعْتِقاداتِ، والأَعْمالِ }.(ينظُر: اقتضاءُ الصِّراطِ المستقيمِ لمُخالفةِ أصحابِ الجَحِيمِ : ١/٣٢٨).

-وَقَد وُجِدَتْ حَالاتٌ مِنَ الغُلُوِّ في حياةِ النَّبِيِّ -صلَّى اللهُ عليه وسلَّم-، لَكِنَّها لا تُمَثِّلُ عَقِيدةً ومَنْهَجًا، بَلْ سَرعانَ ما ذَهَبَتْ عندَ مَعْرِفَةِ الصَّوابِ، واِسْتَطاعَ النَّبِيُّ -صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- أَنْ يُفَقِّهَ أَصْحابَهُ ويُعَلِّمَهُم لِيُصَحِّحُوا مَا قَد يَحْصُلُ مِنْ بَعْضِهِم من خَطَأٍ.

فَمِنْ ذَلِكَ:

(١) حَديثُ أَنَسِ بْنِ مالكٍ -رَضِيَ اللهُ تعالى عَنْهُ-، قَالَ:{ جَاءَ ثَلاثَةُ رَهْطٍ إلى بُيوتِ أَزواجِ النَّبِيِّ -صلَّى اللهُ عليه وسلَّم-، يَسْأَلُونَ عَنْ عِبادةِ النَّبِيِّ -صلَّى اللهُ عليه وسلَّم-، فَلَمَّا أُخبِرُوا كَأَنَّهُم تَقالّوها، فَقَالُوا: وَأينَ نَحنُ مِنَ النَّبِيِّ -صلَّى اللهُ عليه وسلَّم-؟ قَد غُفِرَ لهُ ما تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِهِ وما تَأَخَّرَ. قَالَ أَحَدُهُمْ: أَمَّا أَنا فَإِنِّي أُصَلِّي اللَّيْلَ أبدًا. وَقَالَ آخَرُ: أَنا أَصُومُ الدَّهْرَ وَلا أَفطِرُ. وَقَالَ آخَرُ: أَنا أَعْتَزِلُ النِّساءَ فَلا أَتَزَوَّجُ أبدًا. فَجاءَ رَسولُ اللهِ -صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- إلَيهِم، فَقَالَ: أَنتُم الَّذينَ قُلْتُم كَذا وكَذا، أَمَّا واللهِ إِنِّي لأَخشاكمُ للهِ وأَتقاكُم لهُ، لَكِنِّي أَصومُ وأَفطِرُ، وأُصَلِّي وأَرْقُدُ، وأَتَزَوَّجُ النِّساءَ، فَمَن رَغِبَ عَن سُنَّتي فَليسَ مِنِّي }.(أَخرَجَهُ البُخاريُّ -كتابُ النِّكاحِ، بَابُ التَّرغيبِ في النِّكاحِ (٧/٢)، رقم: (٥٠٦٣)-، وَمُسلِم -بابُ استحبابِ النِّكاحِ لِمَن تاقَتْ نَفسُهُ إلَيهِ، وَوَجدَ مُؤنَهُ، وَاشْتِغالِ مَن عَجَزَ عنِ المُؤنِ بِالصَّومِ (١٠٢٠/٢)، رقم:١٤٠١).

-فاستَنكَرَ النَّبِيُّ -صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- هذا الأَمرَ الَّذي فيهِ نَوْعٌ مِنَ الغُلُوِّ فِي الدِّينِ، وَجَعَلَهُ خُروجًا عَن سُنَّتِهِ وهُداهُ، فَوَقَفَ الصَّحابَةُ عِندَ الحَدِّ، وَالتَزَمُوا هُدى النَّبِيِّ -صلَّى اللهُ عليه وسلَّم-.

(٢) وَعَن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ -رَضِيَ اللهُ تعالى عَنْهُما- قَالَ:{ بَيْنَما النَّبِيُّ -صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- يخطبُ، إِذَا هُوَ بِرَجُلٍ قائِمٍ، فَسُئِلَ عَنْهُ فَقَالُوا: أَبُوا إِسْراáil، نَذَرَ أَنْ يَقُومَ وَلا يَقْعُدَ، وَلا يَسْتَظِلَّ، وَلا يَتَكَلَّمَ، وَيَصُومَ. فَقَالَ النَّبِيُّ -صلَّى اللهُ عليه وسلَّم-: مَرَّهُ فَلْيَتَكَلَّمْ وَلْيَسْتَظِلَّ وَلْيَقْعُدْ، وَلْيَتِمَّ صَوْمَهُ }.(أَخرَجَهُ البُخاريُّ -كتابُ الأيمانِ والنُّذور، بابُ النَّذرِ فيما لا يملك وفي معصيةِ (١٤٣/٨)، رقم: (٦٧٠٤)).

-فَتَعْذِيبُ الجِسدِ وَتَحمِيلُهُ ما لا يَطِيقُ لَيسَ مِن مَناهجِ الإسلامِ ووسائلِهِ لِبُلوغِ الكَمَالِ المَنشودِ، فإنَّ مِثاليَّةَ الإِسلامِ يُمكِنُ بُلوغُها بِنَهْجٍ مُعتَدِلٍ وَسَيْرٍ مُريحٍ، وَمَنْ خَرَجَ مِنْ هذا النَّهجِ وجَبَ رَدُّهُ إِلَيهِ.

(٣) وَعَن أَنَسِ بْنِ مالكٍ -رَضِيَ اللهُ عنهُ-، قَالَ:{ دَخَلَ النَّبِيُّ -صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- فَإِذَا حِبْلٌ مَمْدودٌ بَيْنَ السَّارِيَتَينِ، فَقَالَ: ما هذا الحِبْلُ؟ فَقَالُوا: هذا حِبْلٌ لِزينَبَ فإذا فَتَرَتْ تَعَلَّقَتْ. فَقَالَ النَّبِيُّ -صلَّى اللهُ عليه وسلَّم-: لا، حِلُّوهُ، لِيُصلِّي أَحَدُكُم نَشاطَهُ، فإذا فَتَرَ فَلْيَقْعُدْ }.(أَخرَجَهُ البُخاريُّ -ما يَكْرَهَ مِنَ التَّشديدِ في العِبادةِ (٥٣/٢)، رقم: (١١٥٠)).

-فَكَرِهَ -صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- الإِفراطَ في العِبادةِ، لِئَلا يَنقَطِعَ عَنْها المَرءُ فَيَكونَ كَأَنَّهُ رُجوعٌ فيما بذلَهُ مِن نَفسِهِ للهِ تعالى، وَتَطَوَّعَ بِهِ.(ينظُر: شَرْحُ صحيحِ البُخاريِّ لابنِ بطالٍ: ١٤٥/٣).

-ثُمَّ انطَلَقَتْ بوَادِرُ الغُلُوِّ في التَّكفيرِ مِن ذَلِكَ الرَّجُلِ الَّذي خَطَّأَ النَّبِيَّ -صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- وَلَم يَقتَنِعْ بما قضى به، ففي الصَّحيحَين عن أَبي سعيدٍ الخُدريِّ -رَضِيَ اللهُ تعالى عنهُ-، قَالَ:{ بَيْنَما نَحنُ عِنْدَ رسولِ اللهِ -صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- وَهُوَ يُقسِمُ قَسَمًا،

أَتاهُ ذوُ الخُويصِرَةِ، وَهُوَ رَجُلٌ مِن بَني تَمِيمٍ، فَقَالَ: يا رسولَ اللهِ، اعْدِل. فَقَالَ: وَيلُكَ، وَمَنْ يَعْدِلْ إذَا لم أَعْدِلْ؟ قَد خَبِتَ وَخُسِرَتْ إن لَّم أَكُن أَعْدِلُ. فَقَالَ عُمَرُ: يا رسولَ اللهِ، ائذَنْ لي فيهِ فأضْرِب عنقَهُ؟ فَقَالَ: دَعْهُ، فإنَّ لَهُ أَصْحابًا يَحضُرُ أَحدُكُم صَلاتَهُ مَعَ صَلاتِهِمْ، وصَيامَهُ مَعَ صِيامِهِمْ، يَقرَءُونَ القُرآنَ لا يَجتازُ تَراقيهِمْ، يَمرِقُونَ مِنَ الدِّينِ كَما يَمرِقُ السَّهمُ مِن الرَّميَّةِ. يَنظُرُ إلى نَصْلِهِ فلا يُوجَدُ فيهِ شَيءٌ، ثُمَّ يَنظُرُ إلى رِصافِهِ فَما يُوجَدُ فيهِ شَيءٌ، ثُمَّ يَنظُرُ إلى نَضِيهِ -وَهُوَ قَدْحُهُ- فلا يُوجَدُ فيهِ شَيءٌ، ثُمَّ يَنظُرُ إلى قَذِذِهِ فلا يُوجَدُ فيهِ شَيءٌ، قَد سَبَقَ الفَرثُ والدَّمُ، آيَتُهم رَجُلٌ أَسْوَدُ، إحدى عَضِدَيْهِ مِثْلُ ثَدْيِ المرأةِ، أو مِثْلِ البَضعَةِ تُدَرْدَرُ، وَيَخرُجُونَ على حينِ فِرْقَةٍ مِنَ النَّاسِ }.قَالَ أَبُو سَعِيدٍ:{ فَأَشْهَدُ أَنِّي سَمِعتُ هَذا الحَديثَ مِن رَسولِ اللهِ -صلَّى اللهُ عليه وسلَّم-، وَأَشْهَدُ أَنَّ عَلِيًّا بْنَ أَبِي طَالِبٍ قَاتَلَهُم وَأَنَا مَعَهُ، فَأَمَرَ بِذلِكَ الرَّجُلِ فَالتَمَسَ، فَأُتيَ بِهِ، حَتَّى نَظَرْتُ إِلَيهِ عَلى نَعْتِ النَّبِيِّ -صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- الَّذي نَعَتَهُ }.(أَخرَجَهُ البُخاريُّ -كتابُ المناقبِ، بابُ عَلاماتِ النُّبوَّةِ في الإسْلامِ (٤/٢٠٠)، رقم: (٣٦١٠)-، وَمُسلِم -كتابُ الكسوفِ، بابُ ذِكرِ الخوارجِ وصفاتِهِمْ (٢/٧٤٤)، رقم: (١٠٦٤)).

-قَالَ ابنُ الجَوْزيِّ -رَحِمهُ اللهُ تعالى-: { فَهذا أَوَّلُ خارِجيٍّ خَرَجَ في الإسلامِ، وآفتُهُ أَنَّهُ رَضِيَ برَأْيِ نَفسِهِ، ولَو وَقَفَ لَعَلِمَ أَنَّهُ لا رَأْيَ فَوقَ رَأْيِ رَسُولِ اللَّهِ -صلَّى اللَّهُ عليه وسلم- }.(ينظُر: تلبيسُ إبليسَ ص: ٨٢).

-فَهذا الرَّجُلُ اتَّهَمَ النَّبِيَّ -صلَّى اللهُ عليه وسلم- بِعَدَمِ التَّقوى وَعَدَمِ العَدْلِ، لِأَنَّ القِسْمَةَ لَم تُوافِقْ هَواهُ، وَلَم يَعرِفْ مَرادَ النَّبِيِّ -صلَّى اللهُ عليه وسلم-، فَالقِسْمةُ في نَظَرِهِ باطِلةٌ ولو كانَت من عِندِ رسولِ اللهِ -صلَّى اللهُ عليه وسلم-.

• هَذا الرَّجُلُ هو ذوُ الخُويصِرَةِ: كانَ أَحَدَ الرُّؤوسِ الَّتي دَبَّرَتِ الفِتْنةَ، وَشارَكَ في المؤامَرةِ ضدَّ الخَليفةِ عُثمانَ –رَضِيَ اللهُ عنه–، إذ كانَ يَقومُ ثوَّارَ البَصرَةِ، كما كانَ مِن قادَةِ الخَوارِجِ الَّذينَ انشَقُّوا على عَلِيِّ بْنِ أَبي طَالِبٍ –رَضِيَ اللهُ عنه–، وَهو الَّذي خاطَبَ عَلِيًّا قائِلًا: { تُبْ من خَطِيئَتِكَ } ، وذلك ذَنبٌ يَنْبَغي أَنْ تَتُوبَ منهُ، ويَقصدُ التَّحْكِيمَ. قُتِلَ في مَعْرَكةِ النَّهْرَوانِ. (ينظُر: تاريخُ الطَّبريِّ: ٧٢/٥).



• سَادِسًا: بَعْضُ مَظَاهِرِ الْغُلُوِّ فِي الدِّينِ:

-هُنَاكَ مَظَاهِرُ كَثِيرَةٌ لِلْغُلُوِّ فِي الدِّينِ أَذْكُرُ مِنْهَا:

(١) التَّعَصُّبُ لِلرَّأْيِ :

مِنْ مَظَاهِرِ الْغُلُوِّ التَّعَصُّبُ للرَّأيِ وَعَدَمُ الاعْتِرَافِ بِالرَّأْيِ الآخَرِ فِي الْأُمُورِ الاجْتِهَادِيَّةِ وَالْأُمُورِ الْمُحْتَمَلَةِ، وَكَثِيرًا مَا يَجْعَلُ الْأُمُورَ الاجْتِهَادِيَّةَ أُمورًا مَقْطُوعَةً وَيَقِينِيَّةً، لَيْسَ فِيهَا إِلَّا قَوْلٌ وَاحِدٌ وَهُوَ قَوْلُهُ، وَلَا رَأْيَ إِلَّا رَأْيُهُ، فَهُوَ لَا يَسْمَعُ حُجَجَ الْآخَرِينَ وَلَا يُفَكِّرُ فِيهَا وَلَا يُقَارِنُ كَلَامَهُ بِكَلَامِهِمْ وَيُنَاظِرُ حُجَّتَهُ بِحُجَّتِهِمْ، ثُمَّ يَأْخُذُ مَا يَرَاهُ أَنْصَعَ بُرْهَانًا وَأَرْجَحَ مِيزَانًا.

-وَالْعَجَبُ أَنَّ مِنْهُمْ مَنْ يُجِيزُ لِنَفْسِهِ أَنْ يَجْتَهِدَ فِي أَغْوَصِ الْمَسَائِلِ وَأَغْمَضِ الْقَضَايَا وَهُوَ غَيْرُ أَهْلٍ لِلاجْتِهَادِ وَلَا يُجِيزُ لِغَيْرِهِ مِنَ الْعُلَمَاءِ الْمُتَخَصِّصِينَ أَنْ يَجْتَهِدَ كَمَا اجْتَهَدَ هُوَ، فَهَذَا التَّعَصُّبُ الْمَقِيتُ الَّذِي يُثْبِتُ الْمَرْءَ فِيهِ نَفْسَهُ وَيَنْفِي كُلَّ مَا عَدَاهُ، كَأَنَّمَا يَقُولُ لَكَ: مِنْ حَقِّي أَنْ أَتَكَلَّمَ، وَمِنْ وَاجِبِكَ أَنْ تَتَّبِعَ، رَأْيِي صَوَابٌ لَا يَحْتَمِلُ الْخَطَأَ وَرَأْيُكَ خَطَأٌ لَا يَحْتَمِلُ الصَّوَابَ، وَبِهَذَا لَا يُمْكِنُ أَنْ يَلْتَقِيَ بِغَيْرِهِ أَبَدًا!

-وَيَزْدَادُ الْأَمْرُ خُطُورَةً حِينَ يُرَادُ فَرْضُ الرَّأْيِ عَلَى الْآخَرِينَ بِالْعَصَا الْغَلِيظَةِ، وَهُنَا قَدْ لَا تَكُونُ الْعَصَا الْغَلِيظَةُ مِنْ حَدِيدٍ أَوْ خَشَبٍ فَهُنَاكَ الِاتِّهَامُ بِالِابْتِدَاعِ أَوْ بِالِاسْتِهْتَارِ بِالدِّينِ أَوْ بِالْكُفْرِ وَالْمُرُوقِ.

(٢) إِلْزَامُ جُمْهُورِ النَّاسِ بِمَا لَمْ يُلْزِمْهُمُ اللَّهُ بِهِ:

وَمِنْ مَظَاهِرِ الْغُلُوِّ الدِّينِيِّ الْتِزَامُ التَّشَدُّدِ مَعَ قِيَامِ مُوْجِبَاتِ التَّيْسِيرِ وَإِلْزَامُ الْآخَرِينَ بِهِ حَيْثُ لَمْ يُلْزِمْهُمُ اللَّهُ بِهِ، فَلَا يَنْبَغِي لِمُسْلِمٍ أَنْ يَرْفُضَ التَّيْسِيرَ فِي وَقْتِ الْحَرَجِ وَأَنْ يَرْفُضَ الرُّخْصَةَ الَّتِي رَخَّصَهَا اللَّهُ وَيَلْزَمَ جَانِبَ التَّشَدُّدِ فِي كُلِّ أَحْوَالِهِ بِحَيْثُ يَحْتَاجُ إِلَى التَّيْسِيرِ فَيَأْبَاهُ وَتَأْتِيهِ الرُّخْصَةُ لِتُخْرِجَهُ مِنَ الضِّيقِ وَالْحَرَجِ فَيَرْفُضُهَا.

(٣) التَّشَدُّدُ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ:

وَمِمَّا يُنْكَرُ مِنَ التَّشَدُّدِ أَنْ يَكُونَ فِي غَيْرِ زَمَانِهِ وَمَكَانِهِ، فَحَدِيثِي الْعَهْدِ بِإِسْلَامٍ أَوْ حَدِيثِي عَهْدٍ بِتَوْبَةٍ يُنْبَغِي التَّسَاهُلُ مَعَهُمْ فِي الْمَسَائِلِ الْفَرْعِيَّةِ وَالْأُمُورِ الْخِلَافِيَّةِ، وَالتَّرْكِيزُ مَعَهُمْ عَلَى الْكُلِّيَّاتِ قَبْلَ الْجُزْئِيَّاتِ.

-لِذٰلِكَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – لِمُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ – رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ- لَمَّا أَرْسَلَهُ إِلَىٰ الْيَمَنِ:{ إِنَّكَ تَأْتِي قَوْمًا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ فَادْعُهُمْ إِلَىٰ شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَٰلِكَ فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللَّهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذٰلِكَ، فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللَّهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ فَتُرَدُّ فِي فُقَرَائِهِمْ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَكَ بِذٰلِكَ، فَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ، وَاتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ؛ فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ حِجَابٌ }.(أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ: ١٤٩٦ مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ-رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمَا-).

(٤) الغِلْظَةُ وَالْخُشُونَةُ:

-مِنْ مَظَاهِرِ الْغُلُوِّ الْغِلْظَةُ وَالْخُشُونَةُ فِي الْأُسْلُوبِ وَالْفَظَاظَةِ فِي الدَّعْوَةِ، خِلَافًا لأَوَامِرِ اللَّهِ وَأَوَامِرِ رَسُولِهِ. فَقَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى:{ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ۖ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ } (النَّحْل: ١٢٥).،وَوَصَفَ رَسُولَهُ الْكَرِيمَ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – بِقَوْلِهِ:{ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ، حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ، رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ }.

(التَّوْبَة: ١٢٨).،وَقَالَ تَعَالَى:{ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ }.(آلِ عِمْرَانَ: ١٥٩).

(٥) سُوءُ الظَّنِّ بِالنَّاسِ:

-بِالتَّفْتِيشِ عَنْ الْعُيُوبِ وَيَجْعَلُونَ مِنَ الْخَطَأِ خَطِيئَةً، وَمِنَ الْخَطِيئَةِ كُفْرًا. وَإِذَا كَانَ هُنَاكَ قَوْلٌ يَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ؛ وَجْهَ خَيْرٍ وَهِدَايَةٍ، وَوَجْهَ شَرٍّ وَغَوَايَةٍ، رَجَّحُوا احْتِمَالَ الشَّرِّ عَلَى احْتِمَالِ الْخَيْرِ، خِلَافًا لِمَا أُثِرَ عَنْ عُلَمَاءِ الْأُمَّةِ مِنْ أَنَّ الْأَصْلَ حَمْلُ حَالِ الْمُسْلِمِ عَلَى الصَّلَاحِ وَالْعَمَلِ عَلَى تَصْحِيحِ أَقْوَالِهِ وَتَصَرُّفَاتِهِ بِقَدْرِ الْإِمْكَانِ.

-إِنَّ وَلَعَ مَنْ يُكَفِّرُونَ الْمُسْلِمِينَ بِالْهَدْمِ لا بِالْبِنَاءِ وَلَعٌ قَدِيمٌ وَغِرَامُهُمْ بِانْتِقَادِ غَيْرِهِمْ وَتَزْكِيَةُ أَنفُسِهِمْ أَمْرٌ مَعْرُوفٌ. وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَقُولُ:{ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ ۚ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ ۖ فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ اتَّقَىٰ }. (النَّجْم: ٣٢).

-وَفِي الْحَدِيثِ: { إِذَا قَالَ الرَّجُلُ: هَلَكَ النَّاسُ فَهُوَ أَهْلَكُهُمْ }. (أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ: ٢٦٢٣ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ).

-فَفِي هَذَا الْحَدِيثِ يُخْبِرُ النَّبِيُّ-صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أَنَّ الإِنْسَانَ إِذَا قَالَ: { هَلَكَ النَّاسُ }، أَيْ: اسْتَوْجَبُوا عِقَابَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ، وَإِنَّمَا قَالَ ذٰلِكَ إِعْجَابًا بِنَفْسِهِ وَتَصَاغُرًا لِلنَّاسِ. { فَهُوَ أَهْلَكُهُمْ }، رُوِيَ: { أَهْلَكُهُمْ } بِضَمِّ الْكَافِ وَفَتْحِهَا، وَرِوَايَةُ الضَّمِّ أَشْهَرُ، وَمَعْنَاهَا: فَهُوَ أَسْبَقُهُمْ لِهَذَا الْعِقَابِ وَأَحَقُّهُمْ بِهِ؛ لِمَا وَقَعَ فِيهِ مِنَ الْغُرُورِ وَالْإِعْجَابِ بِصَلَاحِهِ. وَرِوَايَةُ الْفَتْحِ مَعْنَاهَا: أَنَّهُ تَسَبَّبَ فِي هَلَاكِهِمْ؛ لِمَا يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ مِنْ يَأْسِ النَّاسِ وَقُنُوطِهِمْ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ بِسَبَبِ قَوْلِهِ ذٰلِكَ.

-وَقَدِ اتَّفَقَ الْعُلَمَاءُ أَنَّ هَذَا الذَّمَّ إِنَّمَا هُوَ فِي مَنْ يَقُولُهُ عَلَى سَبِيلِ احْتِقَارِ النَّاسِ وَتَفْضِيلِ نَفْسِهِ عَلَيْهِمْ وَتَقْبِيحِ أَحْوَالِهِمْ؛ لِأَنَّهُ لَا يَعْلَمُ سِرَّ اللَّهِ فِي خَلْقِهِ.

-وَأَمَّا مَنْ قَالَ ذٰلِكَ تَحَزُّنًا لِمَا يَرَى فِي نَفْسِهِ وَفِي النَّاسِ مِنَ النَّقْصِ فِي أَمْرِ الدِّينِ، أَوْ قَالَ ذٰلِكَ مُقَارَنَةً بَيْنَ أَحْوَالِ النَّاسِ فِي زَمَانِهِ وَبَيْنَ أَحْوَالِ الصَّحَابَةِ وَالصَّالِحِينَ؛ فَلَا بَأْسَ عَلَيْهِ. وَقَدْ أَخْبَرَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-أَنَّهُ: لَا يَأْتِي زَمَانٌ إِلَّا الَّذِي بَعْدَهُ شَرٌّ مِنْهُ، كَمَا أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ.

•فَكَثِيرٌ مِنَ هَؤُلَاءِ الْمُتَشَدِّدِينَ يَرْتَدُونَ نَظَّارَةً سَوْدَاءَ، فَلَا يَرَوْنَ إِلَّا الْمَثَالِبَ.

-وَكَثِيرًا مَا تَجِدُهُ يُنَقِّدُ النَّاسَ وَلَا يُعْجِبُهُ أَحَدٌ. وَإِذَا سَأَلْتَهُ عَنْ شَخْصٍ مَا ذَكَرَ مَثَالِبَهُ وَبَالَغَ فِيهَا وَسَكَتَ عَنْ حَسَنَاتِهِ، وَفِي أَحْسَنِ الْأَحْوَالِ يَذْكُرُ جُزْءًا يَسِيرًا مِنْ حَسَنَاتِهِ وَيُقَلِّلُ مِن شَأْنِهَا. وَهَذِهِ نَظْرَةٌ غَيْرُ عَادِلَةٍ وَانْحِرَافٌ عَنْ جَادَّةِ الطَّرِيقِ. وَقَدْ قَالَ تَعَالَى:{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا ۚ اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ } (المَائِدَة: ٨).،وَقَالَ تَعَالَى:{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ ۚ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا ۚ وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا } (النِّسَاء: ١٣٥).

-فَعَلَى الْمُسْلِمِ أَنْ يَكُونَ عَادِلًا مُنْصِفًا، يَزِنُ النَّاسَ بِمِيزَانِ الشَّرْعِ وَالْوُسْطِيَّةِ.
فَمَنْ رَجَحَتْ حَسَنَاتُهُ عَلَى سَيِّئَاتِهِ فَهُوَ صَالِحٌ. وَلَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَلْبِسَ نَظَّارَةً سَوْدَاءَ، فَلَا يَرَى إِلَّا السَّوَادَ. وَلَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ. فَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ-صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: { لَا تَحَاسَدُوا، وَلَا تَنَاجَشُوا، وَلَا تَبَاغَضُوا، وَلَا تَدَابَرُوا، وَلَا يَبِعْ بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَيْعِ بَعْضٍ، وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا. الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ، لَا يَظْلِمُهُ، وَلَا يَخْذُلُهُ، وَلَا يَحْقِرُهُ. التَّقْوَى هَاهُنَا» وَيُشِيرُ إِلَىٰ صَدْرِهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ. بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ. كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ؛ دَمُهُ، وَمَالُهُ، وَعِرْضُهُ }. (أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ: ٢٥٦٤ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ).

-فَقَوْلُهُ-صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: { بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ } أَيْ: فَلَا يَسْتَصْغِرْ شَأْنَهُ وَيَضَعَ مِنْ قَدْرِهِ؛ فَالِاحْتِقَارُ نَاشِئٌ عَنِ الْكِبْرِ، فَهُوَ بِذٰلِكَ يَحْتَقِرُ غَيْرَهُ وَيَرَاهُ بِعَيْنِ النَّقْصِ، وَلَا يَرَاهُ أَهْلًا أَنْ يَقُومَ بِحَقِّهِ.

-وَعَنْ ضَمْضَمِ بْنِ جُوسٍ الْيَمَامِيِّ، قَالَ: قَالَ لِي أَبُو هُرَيْرَةَ: { يَا يَمَامِيُّ، لَا تَقُولَنَّ لِرَجُلٍ: وَاللَّهِ لَا يَغْفِرُ اللَّهُ لَكَ، أَوْ لَا يُدْخِلُكَ اللَّهُ الْجَنَّةَ أَبَدًا. قُلْتُ: يَا أَبَا هُرَيْرَةَ، إِنَّ هَذِهِ لِكَلِمَةٌ يَقُولُهَا أَحَدُنَا لِأَخِيهِ وَصَاحِبِهِ إِذَا غَضِبَ. قَالَ: فَلَا تَقُلْهَا، فَإِنِّي سَمِعْتُ النَّبِيَّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-يَقُولُ: كَانَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ رَجُلَانِ، كَانَ أَحَدُهُمَا مُجْتَهِدًا فِي الْعِبَادَةِ، وَكَانَ الْآخَرُ مُسْرِفًا عَلَى نَفْسِهِ، فَكَانَا مُتَآخِيَيْنِ، فَكَانَ الْمُجْتَهِدُ لَا يَزَالُ يَرَى الْآخَرَ عَلَى ذَنْبٍ، فَيَقُولُ: يَا هَذَا، أَقْصِرْ. فَيَقُولُ: خَلِّنِي وَرَبِّي، أَبُعِثْتَ عَلَيَّ رَقِيبًا؟ قَالَ: إِلَى أَنْ رَآهُ يَوْمًا عَلَى ذَنْبٍ اسْتَعْظَمَهُ، فَقَالَ لَهُ: وَيْحَكَ، أَقْصِرْ. قَالَ: خَلِّنِي وَرَبِّي، أَبُعِثْتَ عَلَيَّ رَقِيبًا؟ قَالَ: فَقَالَ: وَاللَّهِ لَا يَغْفِرُ اللَّهُ لَكَ، أَوْ لَا يُدْخِلُكَ اللَّهُ الْجَنَّةَ أَبَدًا. قَالَ أَحَدُهُمَا، قَالَ: فَبَعَثَ اللَّهُ إِلَيْهِمَا مَلَكًا، فَقَبَضَ أَرْوَاحَهُمَا، وَاجْتَمَعَا عِنْدَهُ، فَقَالَ لِلْمُذْنِبِ: اذْهَبْ فَادْخُلِ الْجَنَّةَ بِرَحْمَتِي. وَقَالَ لِلآخَرِ: أَكُنْتَ بِعَالِمًا، أَكُنْتَ عَلَىٰ مَا فِي يَدِي قَادِرًا، اذْهَبُوا بِهِ إِلَى النَّارِ. قَالَ: فَوَالَّذِي

نَفْسُ أَبِي الْقَاسِمِ بِيَدِهِ، لَتَكَلَّمَ بِكَلِمَةٍ أَوْبَقَتْ دُنْيَاهُ وَآخِرَتَهُ }.(أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ: ٤٩٠١ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ – رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ).

-فَهَذَا قَدْ رَأَى صَاحِبَهُ عَلَى مِنْكَرٍ فاعْتَقَدَ أَنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ لَهُ أَبَدًا وَلا يَدْخِلُهُ الْجَنَّةَ أَبَدًا؛ وَهَذَا اعْتِقَادٌ بَاطِلٌ وَفَاسِدٌ، فَإِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ سَعَتْ كُلَّ شَيْءٍ، وَلَا يَمْلِكُ أَحَدٌ الْحَجْرَ عَلَىٰ رَحْمَةِ اللَّهِ.

(٦) النَّظْرَةُ الْمِثَالِيَّةُ لِلْمُجْتَمَعِ:

-وَمِنْ مَظَاهِرِ الْغُلُوِّ أَنْ يَنْظُرَ الْمَرْءُ إِلَى الْمُجْتَمَعِ وَفِي خَيَالِهِ نَظْرَةً مِثَالِيَّةً، فَيَعْتَقِدَ أَنَّ الْمُجْتَمَعَ الْمُسْلِمَ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ مُجْتَمَعًا مَلَائِكِيًّا، يَسُودُهُ الْحُبُّ وَالْمَوَدَّةُ وَالطَّاعَةُ الدَّائِمَةُ دُونَمَا تَقْصِيرٍ، فَإِنْ كَانَ الْمُجْتَمَعُ الْحَالِيُّ هَكَذَا فَهُوَ مُجْتَمَعٌ مُسْلِمٌ، وَإِنْ وُجِدَتْ فِيهِ الْمَعَاصِي فَهُوَ مُجْتَمَعٌ جَاهِلِيٌّ غَيْرُ إِسْلَامِيٍّ.

-وَإِذَا كَانَتْ قَدْ وَقَعَتْ بَعْضُ الْمَعَاصِي وَالذُّنُوبِ فِي عَهْدِ النَّبِيِّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وَهُوَ خَيْرُ الْقُرُونِ بِلَا جِدَالٍ، فَإِذَا مَا وَقَعَ مِثْلُ ذَلِكَ أَوْ أَكْثَرُ فِي عُصُورِنَا هَذِهِ، فَلَا يَجُوزُ لِأَحَدٍ أَنْ يَصِفَ هَذَا الْمُجْتَمَعَ بِأَنَّهُ مُجْتَمَعٌ جَاهِلِيٌّ وَمُجْتَمَعٌ كَافِرٌ، فَإِنَّ الْمَعَاصِيَ لَا يَخْلُو مِنْهَا مُجْتَمَعٌ مِنَ الْمُجْتَمَعَاتِ عَلَى مَرِّ الْعُصُورِ وَالدُّهُورِ.
-وَقَدِيمًا نَظَرَ بَعْضُ التَّابِعِينَ إِلَى مُجْتَمَعِهِمْ نَظْرَةً مِثَالِيَّةً خَالِيَةً مِنَ الْوَاقِعِ، فَوَجَدُوا أَنَّ كِتَابَ اللهِ تَعَالَى لَا يُعْمَلُ بِهِ كُلُّهُ، وَذَلِكَ فِي عَهْدِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رِضْوَانُ اللهِ تَعَالَى عَلَيْهِ، فَأَنْكَرُوا ذَلِكَ، وَذَهَبُوا إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ لِيُنَاظِرُوهُ فِي هَذَا التَّقْصِيرِ فِي الْمُجْتَمَعِ الْمُسْلِمِ، وَلْنَنْظُرْ مَاذَا دَارَ بَيْنَهُمْ.

-رَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنِ الْحَسَنِ: إِنَّ أُنَاسًا سَأَلُوا عَبْدَ اللهِ بْنَ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ بِمِصْرَ، فَقَالُوا: نَرَى أَشْيَاءَ مِنْ كِتَابِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ أَمَرَ أَنْ يُعْمَلَ بِهَا لَا يُعْمَلُ بِهَا، فَأَرَدْنَا أَنْ نَلْقِيَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فِي ذَلِكَ. فَقَدِمَ وَقَدِمُوا مَعَهُ، فَلَقِيَ عُمَرَ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ –، فَقَالَ: مَتَى

قَدِمْتَ؟ قَالَ: مُنْذُ كَذَا وَكَذَا، قَالَ: أَبِإِذْنٍ قَدِمْتَ؟ قَالَ: لَا، فَلَا أَدْرِي كَيْفَ رَدَّ عَلَيْهِ، فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، إِنَّ أُنَاسًا لَقُونِي بِمِصْرَ فَقَالُوا: إِنَّا نَرَى أَشْيَاءَ فِي كِتَابِ اللهِ أَمَرَ اللهُ أَنْ يُعْمَلَ بِهَا فَلَا يُعْمَلُ بِهَا، فَأَحَبُّوا أَنْ يَلْقُوكَ فِي ذَلِكَ، قَالَ: فَاجْمَعْهُمْ لِي، قَالَ: فَجَمَعَهُمْ لَهُ، فَأَخَذَ أَدْنَاهُمْ رَجُلًا، فَقَالَ: أَنْشُدُكَ اللهَ وَبِحَقِّ الْإِسْلَامِ عَلَيْكَ، أَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ كُلَّهُ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: فَهَلْ حَصَيْتَهُ فِي نَفْسِكَ؟ فَقَالَ: اللَّهُمَّ لَا، قَالَ: وَلَوْ قَالَ نَعَمْ لَخَصَمْتُهُ، قَالَ: فَهَلْ أَحْصَيْتَهُ فِي بَصَرِكَ؟ فَهَلْ أَحْصَيْتَهُ فِي لَفْظِكَ؟ فَهَلْ أَحْصَيْتَهُ أَثَرَكَ؟ ثُمَّ تَتَبَّعَهُمْ حَتَّى أَتَى عَلَى آخِرِهِمْ، فَقَالَ: ثَكِلَتْ عُمَرَ أُمُّهُ! أَتُكَلِّفُونَهُ أَنْ يُقِيمَ النَّاسَ عَلَى كِتَابِ اللهِ؟! قَدْ عَلِمَ رَبُّنَا أَنَّهُ سَتَكُونُ لَنَا سَيِّئَاتٌ، قَالَ: وَتَلَا:

{ إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا }

(النِّسَاءُ: ٣١)، ثُمَّ قَالَ: هَلْ عَلِمَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ، أَوْ قَالَ: هَلْ عَلِمَ أَحَدٌ بِمَا قَدِمْتُمْ؟ قَالُوا: لَا، قَالَ: لَوْ عَلِمُوا لَوَعَظْتُ بِكُمْ.

(قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: إِسْنَادُهُ صَحِيحٌ، وَمَتْنُهُ حَسَنٌ).

(٧) السُّقُوطُ فِي هَاوِيَةِ التَّكْفِيرِ:

-وَيَبْلُغُ هَذَا الْغُلُوُّ غَايَتَهُ حِينَ يَسْقُطُ عِصْمَةَ الْآخَرِينَ، وَيَسْتَبِيحُ دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ، وَلَا يَرَى لَهُمْ حُرْمَةً وَلَا ذِمَّةً، وَذَلِكَ عِنْدَمَا يَخُوضُ فِي لُجَّةِ التَّكْفِيرِ، وَاتِّهَامِ جُمْهُورِ النَّاسِ بِالْخُرُوجِ عَنِ الْإِسْلَامِ، أَوْ عَدَمِ الدُّخُولِ فِيهِ أَصْلًا، كَمَا هِيَ دَعْوَى بَعْضِهِمْ، وَهَذَا يُمَثِّلُ قِمَّةَ الْغُلُوِّ الَّذِي يَجْعَلُ صَاحِبَهُ فِي وَادٍ، وَسَائِرَ الْأُمَّةِ فِي وَادٍ آخَرَ.



• سَابِعًا: الْإِسْلَامُ دِينُ الْوَسَطِيَّةِ، وَالرِّفْقِ:

-مِنَ الْخَصَائِصِ الْمُمَيِّزَةِ لِدِينِ الْإِسْلَامِ خَاصِيَّةُ (الْوَسَطِيَّةِ)، فَقَدْ قَالَ اللهُ تَعَالَى: { وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا }.(الْبَقَرَةُ:١٤٣).

-وَقَدْ جَاءَ لَفْظُ (الْوَسَطِ) فِي لُغَةِ الْعَرَبِ عَلَى مَعَانٍ، مِنْهَا: الْعَدَالَةُ، وَالْخَيْرِيَّةُ، وَالتَّوَسُّطُ بَيْنَ الطَّرَفَيْنِ، وَإِلَى هَذَا الْمَعْنَى الثَّالِثِ مَالَ ابْنُ جَرِيرٍ -رَحِمَهُ اللهُ- فَقَالَ:

{ وَأَنَا أَرَى أَنَّ الْوَسَطَ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ هُوَ الْوَسَطُ الَّذِي بِمَعْنَى الْجُزْءِ الَّذِي هُوَ بَيْنَ الطَّرَفَيْنِ، مِثْلُ وَسَطِ الدَّارِ، وَأَرَى أَنَّ اللهَ -تَعَالَى ذِكْرُهُ- إِنَّمَا وَصَفَهُمْ بِأَنَّهُمْ وَسَطٌ، لِتَوَسُّطِهِمْ فِي الدِّينِ، فَلَا هُمْ أَهْلُ غُلُوٍّ فِيهِ، غُلُوِّ النَّصَارَى الَّذِينَ غَلَوْا بِالتَّرَهُّبِ، وَقِيلَهُمْ فِي عِيسَى مَا قَالُوا فِيهِ، وَلَا هُمْ أَهْلُ تَقْصِيرٍ فِيهِ، تَقْصِيرِ الْيَهُودِ الَّذِينَ بَدَّلُوا كِتَابَ اللهِ، وَقَتَلُوا أَنْبِيَاءَهُمْ، وَكَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ، وَكَفَرُوا بِهِ. وَلَكِنَّهُمْ أَهْلُ تَوَسُّطٍ وَاعْتِدَالٍ فِيهِ، فَوَصَفَهُمُ اللهُ بِذَلِكَ، إِذْ كَانَ أَحَبُّ الْأُمُورِ إِلَى اللهِ أَوْسَطَهَا }.(يُنْظَرْ: تَفْسِيرُ الطَّبَرِيِّ: ٦/٢).

-وَالْحَقُّ أَنَّ هَذِهِ الْأُمَّةَ قَدْ جَمَعَتْ هَذِهِ الْأَوْصَافَ الثَّلَاثَةَ كُلَّهَا، فَهِيَ أَعْدَلُ الْأُمَمِ شَهَادَةً، وَخَيْرُ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ، وَهِيَ مُتَوَسِّطَةٌ بَيْنَ أَهْلِ الْإِفْرَاطِ وَأَهْلِ التَّفْرِيطِ مِنَ الْأُمَمِ، وَمِنْ عَجَبٍ أَيْضًا أَنَّ مَوْقِعَهَا الْجُغْرَافِيَّ الَّذِي انْطَلَقَتْ مِنْهُ وَإِلَيْهِ تَأْرِزُ: وَسَطٌ بَيْنَ قَارَّاتِ الدُّنْيَا، وَمُلْتَقَى طُرُقِهَا.

-وَكَمَا أَنَّ هَذِهِ الْأُمَّةَ الْإِسْلَامِيَّةَ وَسَطٌ بَيْنَ الْأُمَمِ، فَإِنَّ أَهْلَ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ، الْمُتَمَسِّكِينَ بِالْإِسْلَامِ الْمَحْضِ، الْخَالِصِ عَنِ الشَّوْبِ، هُمُ الْوَسَطُ فِي فِرَقِ الْأُمَّةِ، وَمِنْ شَوَاهِدِ هَذَا التَّوَسُّطِ الْمُنَافِي لِلْإِفْرَاطِ وَالتَّفْرِيطِ، وَالْغُلُوِّ وَالتَّسَاهُلِ مَا يَلِي:

(١) التَّوَسُّطُ فِي الِاعْتِقَادِ:

-قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- فِي بَيَانِ عَقِيدَةِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ: { هُمُ الْوَسَطُ فِي فِرْقَةِ الْأُمَّةِ، كَمَا أَنَّ الْأُمَّةَ هِيَ الْوَسَطُ فِي الْأُمَمِ، فَهُمْ وَسَطٌ فِي: بَابِ صِفَاتِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بَيْنَ أَهْلِ التَّعْطِيلِ الْجَهْمِيَّةِ، وَأَهْلِ التَّمْثِيلِ الْمُشَبِّهَةِ، وَهُمْ وَسَطٌ فِي بَابِ أَفْعَالِ اللهِ بَيْنَ الْجَبْرِيَّةِ، وَالْقَدَرِيَّةِ وَغَيْرِهِمْ، وَفِي بَابِ وَعِيدِ اللهِ بَيْنَ الْمُرْجِئَةِ وَالْوَعِيدِيَّةِ مِنَ الْقَدَرِيَّةِ وَغَيْرِهِمْ، وَفِي بَابِ أَسْمَاءِ الْإِيمَانِ وَالدِّينِ بَيْنَ الْحَرُورِيَّةِ

وَالْمُعْتَزِلَةِ، وَبَيْنَ الْمُرْجِئَةِ وَالْجَهْمِيَّةِ، وَفِي أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بَيْنَ الرَّافِضَةِ، وَالْخَوَارِجِ }.(يُنْظَرْ:الْعَقِيدَةُ الْوَاسِطِيَّةُ: ٨٢).

(٢) التَّوَسُّطُ فِي الْعِبَادَةِ:

-عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- قَالَ: { جَاءَ ثَلَاثَةُ رَهْطٍ إِلَى بُيُوتِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يَسْأَلُونَ عَنْ عِبَادَةِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، فَلَمَّا أُخْبِرُوا كَأَنَّهُمْ تَقَالُّوهَا، فَقَالُوا: وَأَيْنَ نَحْنُ مِنَ النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-! قَدْ غَفَرَ اللهُ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ. قَالَ أَحَدُهُمْ: أَمَّا أَنَا فَإِنِّي أُصَلِّي اللَّيْلَ أَبَدًا، وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أَصُومُ الدَّهْرَ وَلَا أُفْطِرُ، وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أَعْتَزِلُ النِّسَاءَ فَلَا أَتَزَوَّجُ أَبَدًا، فَجَاءَ رَسُولُ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فَقَالَ: أَنْتُمُ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا؟ أَمَا وَاللهِ إِنِّي لَأَخْشَاكُمْ لِلَّهِ، وَأَتْقَاكُمْ لَهُ، لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي }.(رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ رَقْم:٥٠٦٣).

(٣) التَّوَسُّطُ فِي السُّلُوكِ:

-كَمَا يَكُونُ التَّوَسُّطُ فِي الِاعْتِقَادِ وَالْعِبَادَةِ، يَظْهَرُ أَيْضًا فِي السُّلُوكِ، وَسَائِرِ التَّصَرُّفَاتِ، وَمِنْ أَمْثِلَةِ ذَلِكَ:

-الْمِشْيَةُ، قَالَ تَعَالَى: { وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ }.(لُقْمَان:١٩).

-قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: { أَيْ امْشِ مُقْتَصِدًا، مَشْيًا لَيْسَ بِالْبَطِيءِ الْمُتَثَبِّطِ، وَلَا بِالسَّرِيعِ الْمُفْرِطِ، بَلْ عَدْلًا وَسَطًا بَيْنَ بَيْنَ }.(يُنْظَرْ: تَفْسِيرُ ابْنِ كَثِيرٍ: ٤٤٧/٣).

-الصَّوْتُ، قَالَ تَعَالَى: { وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ }. (لُقْمَان:١٩).

-قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: { أَيْ لَا تُبَالِغْ فِي الْكَلَامِ وَلَا تَرْفَعْ صَوْتَكَ فِيمَا لَا فَائِدَةَ فِيهِ. وَلِهَذَا قَالَ: { إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ }، قَالَ مُجَاهِدٌ وَغَيْرُ وَاحِدٍ: إِنَّ أَقْبَحَ الْأَصْوَاتِ لِصَوْتُ الْحَمِيرِ، أَيْ غَايَةُ مَنْ رَفَعَ صَوْتَهُ أَنَّهُ يُشَبَّهُ بِالْحَمِيرِ فِي عُلُوِّهِ وَرَفْعِهِ، وَمَعَ هَذَا هُوَ بَغِيضٌ إِلَى اللهِ }.(يُنْظَرْ: تَفْسِيرُ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ،٤٤٧/٣).

-الْمُعَامَلَةُ، قَالَ تَعَالَى: { فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ }. (آلُ عِمْرَانَ:١٥٩).

-الْعِشْرَةُ وَالْمُخَالَطَةُ، عَنْ أَبِي جُحَيْفَةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- قَالَ: { آخَى رَسُولُ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بَيْنَ سَلْمَانَ وَبَيْنَ أَبِي الدَّرْدَاءِ، فَزَارَ سَلْمَانُ أَبَا الدَّرْدَاءِ، فَرَأَى أُمَّ الدَّرْدَاءِ مُتَبَذِّلَةً، فَقَالَ: مَا شَأْنُكِ مُتَبَذِّلَةً؟ قَالَتْ: إِنَّ أَخَاكَ أَبَا الدَّرْدَاءِ لَيْسَ لَهُ حَاجَةٌ فِي الدُّنْيَا، قَالَ: فَلَمَّا جَاءَ أَبُو الدَّرْدَاءِ قَرَّبَ إِلَيْهِ طَعَامًا، فَقَالَ: كُلْ، فَإِنِّي صَائِمٌ، قَالَ: مَا أَنَا بِآكِلٍ حَتَّى تَأْكُلَ، قَالَ: فَأَكَلَ، فَلَمَّا كَانَ اللَّيْلُ ذَهَبَ أَبُو الدَّرْدَاءِ لِيَقُومَ، فَقَالَ لَهُ سَلْمَانُ: نَمْ! فَنَامَ، ثُمَّ ذَهَبَ يَقُومُ، فَقَالَ لَهُ: نَمْ! فَنَامَ، فَلَمَّا كَانَ عِنْدَ الصُّبْحِ قَالَ لَهُ سَلْمَانُ: قُمْ الْآنَ! فَقَامَا، فَصَلَّيَا، فَقَالَ: إِنَّ لِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِرَبِّكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِضَيْفِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لِأَهْلِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، فَأَعْطِ كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ. فَأَتَيَا النَّبِيَّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، فَذَكَرَا ذَلِكَ فَقَالَ لَهُ: صَدَقَ سَلْمَانُ }.

(رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ رَقْم (٢٤١٣). قَالَ أَبُو عِيسَى: هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ).

(٤) التَّوَسُّطُ فِي الْإِنْفَاقِ:

قَالَ تَعَالَى:{ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا }. (الْفُرْقَانُ:٦٧).

-قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى -:{ أَيْ لَيْسُوا بِمُبَذِّرِينَ فِي إِنْفَاقِهِمْ، فَيَصْرِفُونَ فَوْقَ الْحَاجَةِ، وَلَا بُخَلَاءَ عَلَى أَهْلِيَّتِهِمْ، فَيُقَصِّرُونَ فِي حَقِّهِمْ، فَلَا يَكْفُونَهُمْ، بَلْ عَدْلًا خِيَارًا، وَخَيْرُ الْأُمُورِ أَوْسَطُهَا }.(يُنْظَرْ: تَفْسِيرُ ابْنِ كَثِيرٍ:٣٢٦/٣).

(٥) التَّوَسُّطُ فِي التَّقْوِيمِ وَالْحُكْمِ عَلَى الْآخَرِينَ:

-قَالَ تَعَالَى:

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا }.(النِّسَاءُ:١٣٥).

-وَقَالَ تَعَالَى:{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ }.(الْمَائِدَةُ:٨).

-فَدَلَّتْ هَذِهِ النُّصُوصُ عَلَى وُجُوبِ تَحَرِّي الْعَدْلِ، وَتَوَخِّي الْإِنْصَافِ فِي الْأُمُورِ كُلِّهَا، وَمِنْ ذَلِكَ الْحُكْمُ عَلَى النَّاسِ، وَتَقْوِيمُهُمْ، وَعَدَمُ غَمْطِ أَهْلِ الْفَضْلِ فَضْلَهُمْ، وَالْبُعْدُ عَنِ التَّجَنِّي وَالْعُدْوَانِ، وَالِانْدِفَاعِ مَعَ الْعَاطِفَةِ الْهَوْجَاءِ، حَتَّى مَعَ الْمُخَالِفِ.

(٦) التَّوَسُّطُ فِي الْعَوَاطِفِ وَالْمَشَاعِرِ:

-وَمِنْ جَوَانِبِ التَّوَسُّطِ الْمُهِمَّةِ أَنْ يَكُونَ الْمَرْءُ مُعْتَدِلًا فِي مَشَاعِرِهِ وَعَوَاطِفِهِ وَانْفِعَالَاتِهِ، فَلَا يُسْرِفُ إِذَا أَحَبَّ، وَلَا يُسْرِفُ إِذَا أَبْغَضَ، وَلَا يَفْجُرُ إِذَا خَاصَمَ، بَلْ يَحْكُمُ مَشَاعِرَهُ بِحُكْمِ الشَّرِيعَةِ، وَيَضْبِطُهَا بِضَابِطِ الْعَقْلِ، فَعَنْ عَلِيٍّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يَقُولُ:{ حَبِّبْ حَبِيبَكَ هَوْنًا مَا، عَسَى أَنْ يَكُونَ بَغِيضَكَ يَوْمًا مَا، وَأَبْغِضْ بَغِيضَكَ هَوْنًا مَا، عَسَى أَنْ يَكُونَ حَبِيبَكَ يَوْمًا مَا }.

(رَوَاهُ الضِّيَاءُ الْمَقْدِسِيُّ فِي الْأَحَادِيثِ الْمُخْتَارَةِ، (٥٥/٢)، وَإِسْنَادُهُ لَا بَأْسَ بِهِ).

•وَلَقَدْ حَثَّ الإِسْلَامُ عَلَى الرِّفْقِ، لِأَنَّ الرِّفْقَ خَيْرٌ لِلْإِنْسَانِ فِي دِينِهِ وَدُنْيَاهُ، لِذَا أَخْرَجَ الإِمَامُ أَحْمَدُ - رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى - فِي الْمُسْنَدِ بِرَقْمِ (٢٤٣٠٧) مِنْ حَدِيثِ شُرَيْحِ بْنِ هَانِئٍ - رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ - قَالَ:

{ قُلْتُ لِعَائِشَةَ: هَلْ كَانَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يَبْدُو؟قَالَتْ: نَعَمْ، كَانَ يَبْدُو إِلَى هَذِهِ التِّلَاعِ، فَأَرَادَ الْبَدَاوَةَ مَرَّةً، فَأَرْسَلَ إِلَى نَعَمٍ مِنْ إِبِلِ الصَّدَقَةِ، فَأَعْطَانِي مِنْهَا نَاقَةً مُحَرَّمَةً، ثُمَّ قَالَ: يَا عَائِشَةُ، عَلَيْكِ بِتَقْوَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ وَالرِّفْقِ؛ فَإِنَّ الرِّفْقَ لَمْ يَكُ فِي شَيْءٍ قَطُّ إِلَّا زَانَهُ، وَلَمْ يُنْزَعْ مِنْ شَيْءٍ قَطُّ إِلَّا شَانَهُ }.

•شَرْحُ الْحَدِيثِ:

-وَفِي هَذَا الْحَدِيثِ يُخْبِرُ التَّابِعِيُّ شُرَيحُ بْنُ هَانِئٍ:{ قُلْتُ لِعَائِشَةَ: هَلْ كَانَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يَبْدُو؟ }وَهُوَ الذَّهَابُ إِلَى أَمَاكِنَ تَبْعُدُ فِي الصَّحْرَاءِ كَمَقَامِ الْبَدْوِ بِهَا،

{ قَالَتْ: نَعَمْ، كَانَ يَبْدُو إِلَى هَذِهِ التِّلَاعِ }،

وَالتِّلَاعُ جَمْعُ تَلْعَةٍ، وَهِيَ مَا ارْتَفَعَ مِنَ الْأَرْضِ وَغَلُظَ، وَكَانَ مَا سَفُلَ مِنْهَا مَسِيلًا لِمَائِهَا، وَهِيَ أَيْضًا مَا انْحَدَرَ مِنَ الْأَرْضِ، وَمَا أَشْرَفَ مِنْهَا، فَهِيَ مِنَ الْأَضْدَادِ،وَالْمَعْنَى: أَنَّهُ كَانَ يَذْهَبُ بَعِيدًا عَنِ النَّاسِ لِيَخْلُوَ بِنَفْسِهِ فِي الْأَمَاكِنِ الْمُسْتَتِرَةِ بَعِيدًا عَنِ النَّاسِ.

وَقِيلَ: الْمُرَادُ هُنَا مَسِيلُ الْمَاءِ، وَأَنَّهُ كَانَ يَخْرُجُ إِلَيْهِ عِنْدَ مَجِيءِ الْمَاءِ،ثُمَّ قَالَتْ عَائِشَةُ - رَضِيَ اللهُ عَنْهَا -:{ فَأَرَادَ الْبَدَاوَةَ مَرَّةً، فَأَرْسَلَ إِلَى نَعَمٍ مِنْ إِبِلِ الصَّدَقَةِ }،

وَهِيَ الْجِمَالُ الْمَأْخُوذَةُ مِنْ زَكَوَاتِ النَّاسِ،

{ فَأَعْطَانِي مِنْهَا نَاقَةً مُحَرَّمَةً }،وَهِيَ نَاقَةٌ يَحْرُمُ قَتْلُهَا وَذَبْحُهَا، وَهِيَ مَوْقُوفَةٌ لِلَّهِ،

{ ثُمَّ قَالَ: يَا عَائِشَةُ، عَلَيْكِ بِتَقْوَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ وَالرِّفْقِ } بِهِ تَتَأَتَّى الْأَغْرَاضُ وَتَسْهُلُ بِهِ الْمَقَاصِدُ مَا لَا تَتَأَتَّى وَتَسْهُلُ بِغَيْرِهِ،

وَالْمُرَادُ بِالرِّفْقِ: لِينُ الْجَانِبِ وَالْأَخْذُ بِالْأَسْهَلِ؛{ فَإِنَّ الرِّفْقَ لَمْ يَكُ فِي شَيْءٍ قَطُّ إِلَّا زَانَهُ } فَزَيَّنَهُ وَجَعَلَهُ حَسَنًا جَمِيلًا،

{ وَلَمْ يُنْزَعْ مِنْ شَيْءٍ قَطُّ إِلَّا شَانَهُ }

فَعَابَهُ وَجَعَلَهُ قَبِيحًا.

- وَأَخْرَجَ الإِمَامُ الْبُخَارِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - فِي صَحِيحِهِ بِرَقْمِ (٦٤٠١) مِنْ حَدِيثِ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهَا - :{ أَنَّ الْيَهُودَ أَتَوُا النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -، فَقَالُوا: السَّامُ عَلَيْكَ، قَالَ: وَعَلَيْكُم، فَقَالَتْ عَائِشَةُ: السَّامُ عَلَيْكُم، وَلَعَنَكُمُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْكُم، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : مَهْلًا يَا عَائِشَةُ، عَلَيْكِ بِالرِّفْقِ، وَإِيَّاكِ وَالْعُنْفَ، أَوِ الْفُحْشَ، قَالَتْ: أَوَلَمْ تَسْمَعْ مَا قَالُوا؟! قَالَ: أَوَلَمْ تَسْمَعِي مَا قُلْتُ؟ رَدَدْتُ عَلَيْهِمْ، فَيُسْتَجَابُ لِي فِيهِمْ، وَلَا يُسْتَجَابُ لَهُمْ فِيَّ }.

• شَرْحُ الْحَدِيثِ:

-الرِّفْقُ بِالنَّاسِ وَاللِّيْنُ مَعَهُمْ مِنْ جَوَاهِرِ عُقُودِ الأَخْلَاقِ الإِسْلَامِيَّةِ، وَهِيَ مِنْ صِفَاتِ الْكَمالِ، وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى رَفِيقٌ، يُحِبُّ مِنْ عِبَادِهِ الرِّفْقَ.

-وَفِي هَذَا الْحَدِيثِ تُخْبِرُ أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَةُ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - أَنَّ الْيَهُودَ أَتَوْا النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -، فَقَالُوا: { السَّامُ عَلَيْكَ }، يُوَرِّهِمُونَ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَمَنْ مَعَهُ أَنَّهُمْ يُلْقُونَ عَلَيْهِمْ تَحِيَّةَ الإِسْلَامِ، وَالْحَقِيقَةُ أَنَّهُمْ يَدْعُونَ عَلَيْهِمْ، وَالسَّامُ: الْمَوْتُ وَالْهَلَكَةُ، وَلَكِنَّ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَدْ فَطِنَ لِقَوْلِهِمْ وَرَدَّ عَلَيْهِمْ وَقَالَ:{ وَعَلَيْكُم }. وَمَعْنَى جَوَابِهِ: وَعَلَيْكُمْ مِثْلُ مَا قُلْتُمْ مِنَ الدُّعَاءِ.

-وَقَدْ فَطِنَتْ عَائِشَةُ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - أَيْضًا لِقَوْلِهِمْ، فَقَالَتْ: { السَّامُ عَلَيْكُم، وَلَعَنَكُمُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْكُمْ }، فَرَدَّتْ عَلَيْهِمْ بِمِثْلِ لَفْظِهِمْ وَكَلَامِهِمْ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: { مَهْلًا يَا عَائِشَةُ، عَلَيْكِ بِالرِّفْقِ }،أَيْ: تَمَهَّلِي وَاصْبِرِي وَتَرَفَّقِي فِي الْأَمْرِ، { وَإِيَّاكِ وَالْعُنْفَ أَوِ الْفُحْشَ }، أَيْ: يُحَذِّرُهَا النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مِنَ التَّعَدِّي عَلَيْهِمْ بِمِثْلِ قَوْلِهِمْ.

وَالْعُنْفُ: الشِّدَّةُ عِنْدَ الأَخْذِ وَالرَّدِّ، وَيُقْصَدُ بِالْفُحْشِ: التَّعَدِّي فِي الْقَوْلِ وَالْجَوَابِ، لا الْفُحْشُ الَّذِي هُوَ مِنْ رَدِيءِ الْكَلَامِ.

-وَفِي رِوَايَةٍ فِي الصَّحِيحَيْنِ: { إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الرِّفْقَ فِي الْأَمْرِ كُلِّهِ }، أَيْ: يُحِبُّ أَنْ يَتَّصِفَ عَبْدُهُ بِلِينِ الْجَانِبِ وَالأَخْذِ بِالسَّهْلِ؛ فَلَا يَكُونُ فَظًّا وَلَا غَلِيظًا. فَالرِّفْقُ تَتَأَتَّى بِهِ الْأَغْرَاضُ، وَتَسْهُلُ بِهِ الْمَقَاصِدُ مَا لَا تَتَأَتَّى وَتَسْهُلُ بِغَيْرِهِ.

-قَالَتْ عَائِشَةُ لِلنَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: { أَوَلَمْ تَسْمَعْ مَا قَالُوا؟! }، تُنَبِّهُ النَّبِيَّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لِقَوْلِهِمْ، فَقَالَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: { أَوَلَمْ تَسْمَعِي مَا قُلْتُ؟ }، إِشَارَةٌ إِلَى قَوْلِهِ الْمُتَقَدِّمِ: { وَعَلَيْكُم }.

-{ رَدَدْتُ عَلَيْهِمْ }، أَيْ: هَذَا كَانَ رَدِّي عَلَيْهِمْ. وَالْفَرْقُ بَيْنَ رَدِّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَرَدِّ عَائِشَةَ: أَنَّ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - جَزَاهُمْ عَلَى قَدْرِ فِعْلِهِمْ دُونَ أَنْ يُغْلِظَ عَلَيْهِمْ فِي الْقَوْلِ، وَأَمَّا عَائِشَةُ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - فَقَدْ زَادَتْ فِي الدُّعَاءِ عَلَيْهِمْ، وَتَعَدَّتْ وَجَعَلَتِ الْغِلْظَةَ هِيَ السَّبِيلَ فِي الرَّدِّ. { فَيُسْتَجَابُ لِي فِيهِمْ، وَلَا يُسْتَجَابُ لَهُمْ فِيَّ }.

-فَأَوْضَحَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أَنَّ اللَّهَ لا يَسْتَجِيبُ لَهُمْ فِي الْمُسْلِمِينَ إِذَا دَعَا الْيَهُودُ عَلَيْهِمْ، وَأَنَّهُ يَسْتَجِيبُ لِلْمُسْلِمِينَ فِيهِمْ إِذَا دَعَوْا عَلَى الْيَهُودِ.

-وَفِي الْحَدِيثِ: بَيَانُ تَحَايُلِ الْيَهُودِ وَتَغْيِيرِهِمْ فِي الْكَلَامِ بِمَا يُوهِمُ الْمَعْنَى الْمَقْصُودَ وَعَكْسَهُ.

-وَفِيهِ: مُجَازَاةُ الْمُعْتَدِي بِمِثْلِ اعْتِدَائِهِ فِي الْقَوْلِ أَوِ الْفِعْلِ، وَمُعَامَلَتُهُ بِمِثْلِ حِيلَتِهِ.

• فَعَلَيْكُم بِالرِّفْقِ فِي الْأَمْرِ كُلِّهِ، وَإِيَّاكُم وَالْغَلَوَ فِي الدِّينِ، وَعَلَيْكُم أَنْ لَا تَنْسَوْا وَسَطِيَّةَ هَذَا الدِّينِ، وَأَنَّهُ جَاءَ لِيُحَارِبَ التَّنَطُّعَ وَالْغَلَوَ وَالتَّشَدُّدَ، وَالْقُرْآنُ وَالسُّنَّةُ مَلِيئَانِ بِالشَّوَاهِدِ وَالْأَدِلَّةِ الَّتِي لَا تَكَادُ تُحْصَى.

• اللَّهُمَّ أَصْلِحْ لَنَا دِينَنَا الَّذِي هُوَ عِصْمَةُ أَمْرِنَا، وَأَصْلِحْ لَنَا دُنْيَانَا الَّتِي فِيهَا مَعَاشُنَا، وَأَصْلِحْ لَنَا آخِرَتَنَا الَّتِي إِلَيْهَا مَعَادُنَا، وَاهْدِنَا لأَحْسَنِ الأَعْمَالِ وَالأَخْلَاقِ، لَا يَهْدِي لأَحْسَنِهَا إِلَّا أَنْتَ، وَاصْرِفْ عَنَّا سَيِّئَ الأَعْمَالِ وَالأَخْلَاقِ، لَا يُصْرِفُ سَيِّئَهَا إِلَّا أَنْتَ، وَآخِرُ دَعْوَانَا أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

• كَتَبَهُ:

خَادِمُكُمْ وَمُحِبُّكُمْ فِي اللَّهِ أَبُو أَحْمَدَ سَيِّدُ عَبْدِ الْعَاطِي بْنُ مُحَمَّدٍ الذَّهَبِيُّ غَفَرَ اللَّهُ لَهُ وَعَفَا عَنْهُ.

مع تحيات

موسوعة اعرف دينك للعلوم الشرعية والنشر الإلكتروني

من اصدرات الموسوعة-إصدار أول تجريبي كتب الشيخ بصيغة الشاملة



**رابط أرشيف

https://archive.org/details/1447-2025

الرابط مفعل أن كنت متصل بالأنترنت اضغط عليه.

صفحة كتب الشيخ في مكتبة نور

https://www.noor-book.com/%D9%83%D8%AA%D8%A8-%D8%A7%D9%84%D8%B4%D9%8A%D8%AE-%D8%B3%D9%8A%D8%AF-%D8%B9%D8%A8%D8%AF-%D8%A7%D9%84%D8%B9%D8%A7%D8%B7%D9%8A-%D8%A8%D9%86-%D9%85%D8%AD%D9%85%D8%AF-%D8%A7%D9%84%D8%B0%D9%87%D8%A8%D9%8A-pdf